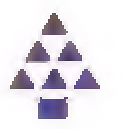
الينابيع

يعقوب الشاروني

سِرُّ الجَدَّة و مَعركَة طَبيب

مكتبة لبنان ناشرون



الشركة المصرية العالمية للنشر
لونجمان

سِرُّ الجَدَّة
و
مَعركَة طَبيب

إشراف : وجدي رزق غالي

١٠ (أ) شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي ، الجيزة - مصر

مكتبة لبنان ناشرون

ص.ب : ٩٢٣٢ - ١١

بيروت - لبنان

وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

الطبعة الأولى ٢٠٠٧

رقم الإيداع ٢٠٠٦ / ١٨٩٩١

الترقيم الدولي ISBN ٩٧٧ - ١٦ - ١٠٧٨ - ٣

رسوم : محمد نبيل عبد العزيز

طبع في دار نوبار للطباعة ، القاهرة



سِرُّ الجَدَّة
و
مَعركَة طَبيب

يعقوب الشاروني







سِرُّ الجَدَّة

(١)

«ابْتِسام.. والِدُكِ خَرَجَ إلى عَمَلِهِ، وأنْتِ لا تَزالينَ في الفِراشِ.. اسْتَيْقِظي!»

وتَمَلْمَلَتِ ابْتِسام وسَحَبَتِ الغِطاءَ فَوْقَ وَجْهِها!

عادَتِ السَّيِّدَةُ نَجاةُ تَصيحُ: «مُنْذُ ساعَةٍ وأَنا أَنْتَظِرُ مُغادَرَتَكِ غُرْفَتَكِ!»

وفي صَوْتٍ خافِتٍ حاوَلَتْ أَنْ تُخْفِيَ ما فيهِ مِنْ لَهْجَةِ الاحْتِجاجِ، قالَتِ ابْتِسام مِنْ تَحْتِ الغِطاءِ: «العُطْلَةُ بَدَأَتْ!»

انْدَفَعَتِ الأُمُّ ووَقَفَتْ غاضِبَةً بِجِوارِ رَأْسِ ابْنَتِها وهِيَ تَصيحُ: «هَلْ تَأْخُذونَ عُطْلَةً مِنْ تَناوُلِ الطَّعامِ؟ مِنْ غَسيلِ الأَواني والأَطْباقِ؟ مِنْ تَنْظيفِ البَيْتِ؟»

جَلَسَتِ ابْتِسام وقَدْ مَلأَ التَّثاؤُبُ فَمَها وهِيَ تَهْمِسُ لِنَفْسِها بِصَوْتٍ لا تُريدُ أَنْ يَصِلَ إلى سَمْعِ الأُمِّ: «عُمَر وخالِد لا يُقْلِقُهُما أَحَدٌ!»

وتَظاهَرَتِ الأُمُّ بِأَنَّها لَمْ تَسْمَعْ إِشارَةَ الابْنَةِ إِلى أَخَوَيْها اللَّذَيْنِ يَكْبُرانِها، وجَذَبَتْها مِنْ ذِراعِها تُساعِدُها عَلى الوُقوفِ: «أَلا تَكْفيكِ تِسْعُ ساعاتٍ مِنَ النَّوْمِ؟»

وأَلْقَتِ ابْتِسام نَظْرَةً سَريعَةً عَلى المِنْضَدَةِ الصَّغيرَةِ المُجاوِرَةِ لِفِراشِها لِتَتَأَكَّدَ أَنَّها أَخْفَتْ جَيِّدًا كُرّاسَةَ مُذَكَّراتِها، الَّتي ظَلَّتْ تَكْتُبُ فيها إلى ما بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ، ثُمَّ قالَتْ: «خاصَمَني النَّوْمُ حَتّى السّاعَةِ الواحِدَةِ...»

وحَمْلَقَتِ الأُمُّ في وَجْهِ الابْنَةِ كَأَنَّما تُريدُ أَنْ تَقْرَأَ في مَلامِحِها السَّبَبَ الحَقيقِيَّ لِلسَّهَرِ إلى تِلْكَ السّاعَةِ المُتَأَخِّرَةِ، لَكِنَّ وَجْهَ الأُمِّ تَجَمَّدَ عِنْدَما ارْتَفَعَ رَنينُ جَرَسِ التِّليفونِ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ طَويلًا مُتَواصِلًا، يُعْلِنُ عَنْ مُكالَمَةٍ قادِمَةٍ مِنْ خارِجِ القاهِرَةِ!

(٢)

المُكالماتُ مِنْ خارِجِ القاهِرَةِ نادِرَةٌ في بَيْتِ الأُسْتاذِ مُصْطَفى شَوْقي، ولا تَحْدُثُ إلا لِسَبَبٍ خَطيرٍ!

سُؤالٌ واحِدٌ دارَ في ذِهْنِ الأُمِّ والابْنَةِ في الوَقْتِ نَفْسِهِ: «هَلْ حَدَثَ شَيْءٌ في البَلَدِ؟»

ورَفَعَتِ الأُمُّ في لَهْفَةٍ سَمّاعَةَ التِّليفونِ... وبَعْدَ لَحْظَةٍ لاحَظَتِ ابْتِسام كَيْفَ تبَدَّلَتْ مَلامِحُ والِدَتِها مُعَبِّرَةً عَنْ قَلَقٍ شَديدٍ، وشَحَبَ لَوْنُ وَجْهِها حَتّى كادَ يُصْبِحُ أَبْيَضَ.

سَأَلَتِ الأُمُّ بِصَوْتٍ يَرْتَعِشُ: «ماذا حَدَثَ لِوالِدَتي؟»

وبَعْدَ لحَظاتٍ سَمِعَتْها ابْتِسام تُرَدِّدُ بِصَوْتٍ ضَعيفٍ: «تَقولُ إِنَّ نِصْفَها الأَيْسَرَ لا يَتَحَرَّكُ وكَلامَها غَيْرُ مَفْهومٍ؟»



وراقَبَتِ ابْتِسام وَجْهَ أُمِّها تَعْصِفُ بِهِ الانْفِعالاتُ، إلى أَنْ وَضَعَتْ أَخيرًا سَمّاعَةَ التِّليفونِ في مَكانِها، وجَلَسَتْ فَوْقَ أَقْرَبِ مَقْعَدٍ.

اقْتَرَبَتِ ابْتِسام مِنْ أُمِّها، وتَرَدَّدَتْ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَ: «هَلْ حَدَثَ شَيْءٌ لِجَدَّتي شَريفَة؟»

رَفَعَتِ الأُمُّ بَصَرَها إلى الابْنَةِ الَّتي لَمْ يَتَجاوَزْ عُمْرُها أَحدَ عَشَرَ عامًا، وقالَتْ في لَهْجَةٍ اِخْتَلَطَ فيها القَلَقُ بالفَزَعِ: «سَوْفَ أَتَغَيَّبُ عَنْ عَمَلي ... يَجِبُ أَنْ أُسافِرَ الْيَوْمَ في الحالِ...»

وانْفَلَتَتْ عِبارَةٌ مِنْ فَمِ ابْتِسام في لَهْجَةٍ تُؤَكِّدُ مِقْدارَ المُفاجَأَةِ الَّتي أَصابَتْها: «تَتْرُكينَنا قَبْلَ أَنْ يُكْمِلَ خالِدٌ امْتِحاناتِ الثّانَوِيَّةِ العامَّةِ؟»

وتَوَقَّعَتِ ابْتِسام أَنْ تَسْمَعَ مِنَ الأُمِّ عِبارَتَها المُعْتادَةَ: «هَذا لَيْسَ مِنْ شَأْنِكِ»، لَكِنَّ الأُمَّ، وكَأَنَّ حِمْلًا ثَقيلًا هَبَطَ فَجْأَةً فَوْقَ كَتِفَيْها، قالَتْ: «جَدَّتُكِ وَحْدَها..

مَنْ يَسْتَطيعُ التَّفَرُّغَ لَها؟ إِنَّها لا تَسْتَطيعُ مُغادَرَةَ فِراشِها لأَيِّ سَبَبٍ!»

(٣)

جَدَّتي شَريفَة النَّشيطَةُ المُبْتَسِمَةُ العَطوفُ، الحَكيمَةُ الَّتي يَلْجَأُ إِلَيْها حَتّى رِجالُ قَرْيَتِنا يَطْلُبونَ مَشورَتَها، اِسْتَيْقَظَتْ هَذا الصَّباحَ، فَتَعَذَّرَ عَلَيْها القِيامُ مِنْ فِراشِها.

ذِراعُها اليُسْرى وساقُها اليُسْرى لا تُطاوِعانِها عَلى الحَرَكَةِ، ولِسانُها أَيْضًا لَمْ يَعُدْ يُسْعِفُها في الكَلامِ!

أَصابَها شَلَلٌ نِصْفِيٌّ.

لَنْ أَجِدَ مَنْ يَحْكي لي حِكاياتِ قَرْيَتِنا بَعْدَ اليَوْمِ.

كانَتْ جَدَّتي تَعيشُ وَحْدَها في بَيْتِها الرّيفِيِّ المُتَّسِعِ بَعْدَ وَفاةِ جَدّي.. رَفَضَتْ أَنْ تَتْرُكَ القَرْيَةَ، وتَمَسَّكَتْ بِأَرْضِها لا تُريدُ بَيْعَها.. قالَتْ: «هُنا أَهْلي وَبَيْتي ودَخْلي مِنْ أَرْضي... مَنْ سَيَهْتَمُّ بِأَنْ يَسْأَلَ عَنّي إِذا

انْتَقَلْتُ إِلى القاهِرَةِ؟»

وكانَتْ والِدَتي تَأْخُذُني لِنَقْضِيَ شَهْرَ عُطْلَتِها مِنْ عَمَلِها كُلَّ صَيْفٍ عِنْدَ جَدَّتي.

كُنْتُ الابْنَةَ الصُّغْرى، أَمّا أُخْتي الكُبْرى اعْتِدال فَكانَتْ تُديرُ شُئونَ البَيْتِ أَثْناءَ سَفَري مَعَ والِدَتي.

لَكِنَّ أُخْتي اعْتِدال تَزَوَّجَتْ مُنْذُ شُهورٍ.

قالَتْ والِدَتي: «لا مَفَرَّ مِنَ السَّفَرِ لأُدَبِّرَ شُئونَ جَدَّتِكُمْ، فَلَيْسَ لَها غَيْري، لَكِنَّني لا أَعْرِفُ كَيْفَ أَتْرُكُ والِدَكِ وأَخَوَيْكِ وَحْدَهُمْ.. لَيْسَ هُناكَ مَنْ يَهْتَمُّ بِأُمورِ البَيْتِ!». تَقْصِدُ أَنَّ أبي وأَخَوَيَّ لا شَأْنَ لَهُمْ بِأُمورِ البَيْتِ، وأَنَّ هَذِهِ هِيَ اخْتِصاصاتُ البَناتِ! ولَمْ تَسأَلْ والِدَتي نَفْسَها عَمّا سَيَفْعَلُهُ أَخي خالدٌ في تَدْبيرِ أُمورِ حَياتِهِ إِذا اخْتارَ لَهُ مَكْتَبُ التَّنْسيقِ، بَعْدَ أَسابيعَ، جامِعَةً إِقْليمِيَّةً بَعيدَةً عَنِ القاهِرَةِ!

وقَدْ جاءَها اليَوْمَ في التِّليفونِ صَوْتُ عَمّي إِسْماعيل،

وهُوَ الأَخُ الأَكْبَرُ لِوالِدي، يُخْبِرُها بِمَرَضِ والِدَتِها المُفاجِئِ، فَقَرَّرَتْ أَنْ تُسافِرَ إِلَيْها فَوْرًا.

قالَتْ: «هِيَ تَحْتاجُ إلى مَنْ يُلازِمُها لَيْلَ نَهارَ، وأَنا ابْنَتُها الوَحيدَةُ.»

ولأَوَّلِ مَرَّةٍ تُسافِرُ والِدَتي إِلى البَلَدِ بِغَيْرِ أَنْ تَصْحَبَني مَعَها.

قالَتْ لي: «لَيْسَ هُناكَ غَيْرُكِ يَسْتَطيعُ الاهْتِمامَ بِأُمورِ البَيْتِ إِلى أَنْ أَعودَ!»

وهَكَذا فَجْأَةً أَصْبَحْتُ كَبيرَةً تَعْهَدُ لي والِدَتي بِأُمورِ البَيْتِ، أَنا الَّتي لَمْ يَهْتَمَّ أَحَدٌ بِأَنْ يُصْغِيَ إِلى رَأْيٍ أَقولُهُ أَوْ سُؤالٍ أُلْقيهِ.

وعِنْدَما شاهَدَتِ الدُّموعَ في عَيْنَيَّ أَكْمَلَتْ: «أُخْتُكِ اعْتِدال لَنْ تَتْرُكَكِ.. سَتَأْتي لِتَراكُمْ كُلَّ يَوْمٍ.»

هَذا ما كَتَبَتْهُ ابْتِسام في كُرّاسَةِ مُذَكِّراتِها تِلْكَ اللَّيْلَةَ،

قَبْلَ أَنْ تُعيدَ إِخْفاءَ تِلْكَ الكُرّاسَةِ تَحْتَ المِفْرَشِ الَّذي يُغَطّي أَرْضِيَّةَ الدُّرْجِ أَسْفَلَ دولابِ مَلابِسِها، لِكَيْ لا يَعْثُرَ عَلَيْها أَحَدُ أَخَوَيْها خالِدٍ أَوْ عُمَرَ فَيُمَزِّقَها، أَوْ يُسَلِّمَها إلى الأَبِ الَّذي يَعْتَبِرُ كِتابَةَ البِنْتِ لِمُذَكِّراتِها شَيْئًا يَدْخُلُ في دائِرَةِ «العَيْبِ».

(٤)

بَعْدَ يَوْمَيْنِ عادَتِ الأُمُّ ومَعَها والِدَتُها شَريفَة جَدَّةُ ابْتِسام، فالسَّيِّدَة نَجاة لا تَسْتَطيعُ التَّغَيُّبَ أَكْثَرَ مِنْ يَوْمَيْنِ بِغَيْرِ إِذْنٍ مُسْبَقٍ عَنْ عَمَلِها كَمُحاسِبَةٍ في بَنْكِ التِّجارَةِ.

عادَتا بَعْدَ سَفَرِ أَرْبَعِ ساعاتٍ ونِصْفِ السّاعَةِ في سَيّارَةِ إِسْعافٍ تَساقَطَ طِلاؤُها الأَحْمَرُ والأَبْيَضُ وارْتَفَعَ صَوتُ مُحَرِّكِها وضَجيجُهُ.

وحَمَلَ رِجالُ الإِسْعافِ الجَدَّةَ فَوْقَ نَقّالَةٍ أَصْبَحَ لَوْنُ فِراشِها رَمادِيًّا، ودَخَلوا بِها شَقَّةَ الأُسْتاذِ مُصْطَفى شَوْقي.

ويَبْدو أَنَّ السَّيِّدَةَ نَجاة كانَتْ قَدْ حَسَمَتْ أَمْرَها واخْتارَتِ المَكانَ الَّذي تَسْتَقِرُّ فيهِ الجَدَّةُ، فَتَقَدَّمَتْ رِجالَ الإسْعافِ بِغَيْرِ تَرَدُّدٍ إلى غُرْفَةِ ابْتِسام، وأَشارَتْ إلى سَريرِ ابْنَتِها الصُّغْرى.

كانَتِ ابْتِسام مَشْغولَةً بِتَأَمُّلِ وَجْهِ جَدَّتِها السّاكِنِ الشّاحِبِ فَوْقَ النَّقّالَة، تُقارِنُهُ في ذاكِرَتِها بِالْوَجْهِ البَشوشِ الَّذي تَعْرِفُهُ جَيِّدًا، والَّذي يُعَبِّرُ في الوَقْتِ نَفْسِهِ عَنِ الحَزْمِ والحِكْمَةِ.

سَأَلَتْ نَفْسَها: «هَلْ يُمْكِنُ أَنْ تَعودَ لِهَذا الوَجْهِ بَشاشَتُهُ؟»

سَمِعَتْ والِدَها يَقولُ في اليَوْمِ السّابِقِ إِنَّ بَعْضَ المَرْضى يَتَغَلَّبونَ عَلى مِثْلِ هَذا الشَّلَلِ المُفاجِئِ ويَسْتَعيدونَ القُدْرَةَ عَلى الكَلام والسَّيْرِ إذا كانَتْ إِصابَةُ المُخِّ بَسيطَةً، لأَنَّ الفالِجَ أَوِ الشَّلَلَ النِّصْفِيَّ كَثيرًا ما يَحْدُثُ نَتيجَةَ انْفِعالٍ حادٍّ يَرْفَعُ ضَغْطَ الدَّمِ، فَيَحْدُثُ

انْفِجارٌ في أَحَدِ شَرايينِ المُخِّ الدَّقيقَةِ، وكُلَّما كانَ الشِّرْيانُ أَصْغَرَ وأَدَقَّ كانَتِ الحالةُ قابِلَةً لِلشِّفاءِ. وأَضافَ الأَبُ:

«لَكِنَّ هَذا يَتَطَلَّبُ إِرادَةَ المَريضِ القَوِيَّةَ لِلشِّفاءِ، وتَعاوُنَ مَنْ يُحيطونَ بِهِ لِتَشْجيعِهِ عَلى أَنْ يَخْطُوَ الخُطُواتِ البَطيئَةَ الصَّعْبَةَ لِلتَّغَلُّبِ عَلى المَرَضِ.»

وتَنَبَّهَتِ ابْتِسام إِلى رِجالِ الإِسْعافِ، تُعاوِنُهُمْ أُمُّها، وهُمْ يَنْقُلونَ الجَدَّةَ مِنْ فَوْقِ النَّقّالَةِ لِتَسْتَقِرَّ فَوْقَ فِراشِها هِي، فِراشِ ابْتِسام.

هَذا شَيْءٌ لَمْ تُفَكِّرْ فيهِ ابْتِسام، لَكِنَّهُ كانَ الشَّيْءَ الطَّبيعِيَّ!

هَذِهِ الغُرْفَةُ كانَتْ غُرْفَةَ ابْتِسام وأُخْتِها اعْتِدال، وقَدْ تَخَلَّصَتِ الأُسْرَةُ مِنْ سَريرِ الأُخْتِ الكُبْرى بَعْدَ زَواجِها ووَضَعوا في مَكانِهِ دولابًا جَديدًا كَبيرًا لِلْمَلابِسِ، تَسْتَخْدِمُ الأُمُّ مُعْظَمَهُ وتَسْتَخْدِمُ الصَّغيرَةُ ابْتِسام جُزْءًا مِنْهُ.



سَأَلَتِ ابْتِسام نَفْسَها: «والآنَ، أَيْنَ سَيوضَعُ الفِراشُ الَّذي لابُدَّ مِنْ إِحْضارِهِ لِتَسْتَقِرَّ جَدَّتي المَريضَةُ فَوْقَهُ؟»

لَمْ تُلْقِ ابْتِسام هَذا السُّؤالَ ولا أَيَّ سُؤال غَيْرِهِ.. الكِبارُ سَيُقَرِّرون كُلَّ شَيْءٍ حَتّى لَوْ تعلَّقَ الأَمْرُ بِغُرْفَتِها الخاصَّةِ.

كانَتِ ابْتِسام تَعْرِفُ جَيِّدًا أَنَّ أَيَّ سُؤالٍ تُلْقيهِ هُوَ تَجاوُزٌ لِحُدودِها وتَدَخُّلٌ فيما لا يَخُصُّها، أَوْ يَعْتَبِرونَهُ احْتِجاجًا غَيْرَ مُباشِرٍ مِنْها عَلى شَيْءٍ لَمْ يُعْجِبْها.

وهَذِهِ كُلُّها أُمورٌ مَمْنوعَةٌ على الفَتَياتِ في أُسْرَةِ الأُسْتاذِ مُصْطَفى شَوْقي المُدَرِّسِ الأَوَّلِ لِلمَوادِّ الاجْتِماعِيَّةِ!

وقَبْلَ أَنْ يَحُلَّ وَقْتُ نَوْمِها، عَرَفَتْ ما الَّذي قَرَّرَتْهُ العائِلَةُ. لَقَدْ وُضِعَ سَريرٌ احْتَلَّ مُعْظَمَ ما بَقِيَ مِنْ فَراغٍ في حُجْرَةِ ابْتِسام، بَعْدَ أَنْ أَبْعَدوا مِنْها المِنْضَدَةَ الَّتي كانَتْ تَسْتَخْدِمُها لِلْكِتابَةِ وتَضَعُ عَلَيْها كُتُبَها.

(٥)

مُنْذُ ثلاثَةِ أَيّامٍ لَمْ أَتَمَكَّنْ مِنْ كِتابَةِ حَرْفٍ، لا في كُرّاسَةِ مُذَكِّراتي ولا في قِصَّتي.. خِلالَ السَّنَةِ الدِّراسِيَّةِ، يَظُنّونَ أَنَّني أُواظِبُ عَلى كِتابَةِ واجِباتي أَوْ أَقْرَأُ لأُراجِعَ المَوادَّ المُقَرَّرَةَ.

أَمّا الآنَ وقَدْ بَدَأَتِ العُطْلَةُ الصَّيْفِيَّةُ، فَهُمْ يَتَساءَلونَ دائِمًا: «ماذا تَكْتُبينَ، وما هَذا الَّذي تَقْرَئينَ؟»

ولا أَعْرِفُ كَيْفَ أَتَحايَلُ لِكَيْ لا يَضْبِطوني وأنا أَقْرَأُ أَوْ أَكْتُبُ... حَتّى كُتُبُ خالِد وعُمَر لا بُدَّ أَنْ تَمُرَّ أَوَّلًا عَلى أَبي قَبْلَ السَّماحِ لي بِإلْقاءِ نَظْرَةٍ عَلَيْها.

أَنا أُحِبُّ جَدَّتي، لَكِنْ مُنْذُ اسْتَضافَتْها غُرْفَتي لَمْ تُصْبِحْ لي غُرْفَةً. أُمّي تَدْخُلُ في أَيِّ وَقْتٍ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهارٍ، وبِغَيْرِ سُؤالٍ تَضَعُ قَطَراتٍ مِنَ الماءِ في فَمِ جَدَّتي، أَوْ مِلْعَقَةَ طَعامٍ أو دواءٍ حَتّى بِغَيْرِ مُحاوَلَةٍ لِسُؤالِ جَدَّتي ما إذا كانَتْ مُسْتَيْقِظَةً أَوْ لا.

يَبْدو أَنَّ والِدَتي تَظُنُّ أَنَّ جَدَّتي فَقَدَتْ نِهائِيًّا القُدْرَةَ على النُّطْقِ.

هَذا غَيْرُ صَحيحٍ.

لاحَظْتُ أَنَّ جَدَّتي قادِرَةٌ عَلى إِصْدارِ الأَصْواتِ لِتُعَبِّرَ عَمّا تُريدُ، لَكِنَّها تَبْدو غَيْرَ راغِبَةٍ في الكَلامِ.

أَحْسَسْتُ أَنَّها تُعاني صَدْمَةً شَديدَةً أَصابَتْها.

هَلْ أَصابَها المَرَضُ المُفاجِئُ بِصَدْمَةٍ، أَوْ أَنَّ صَدْمَةً مفُاجِئَةً سَبَّبَتْ لَها المَرَضَ؟ لَمْ يُلاحِظْ مَنْ حَوْلي هَذا الَّذي لاحَظْتُهُ.

لَيْسَ لَدَيْهِمُ الوَقْتُ لِمُراقَبَةِ انْفِعالاتِ جَدَّتي، ولا لِتَفْسيرِ مَعْنى الأَصْواتِ الَّتي تَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ شَفَتَيْها.

أَمّا أَنا فَقَدْ بَدَأْتُ أَفْهَمُ مُعْظَمَ ما تُحاوِل جَدَّتي أَنْ تَقولَ، لِذَلِكَ فإِنَّها لا تَتَوَجَّهُ بِكَلامِها أَوْ بِأَصْواتِها، لأَحَدٍ غَيْري، عَلى الرَّغْمِ مِنْ قِلَّةِ ما تَقولُ.

قُلْتُ لِوالِدَتي: «سَأَتَوَلّى أَنا أُمورَ جَدَّتي.»

نَظَرَتْ نَحْوي غَيرَ مُصَدِّقَةٍ كَأَنَّني قُلْتُ شَيْئًا مُسْتَحيلًا، فَقُلْتُ: «مَنِ الَّذي اهْتَمَّ بِكُلِّ أُمورِ البَيْتِ أَثْناءَ سَفَرِكِ لِإِحْضارِ جَدَّتي؟ اِسْأَلي أُخْتي اعْتِدال، كانَتْ تَأْتي فَلا تَجِدُ شَيْئًا تَقومُ بِهِ.»

لَمْ تُجِبْ أُمّي بِشَيْءٍ، وكانَتْ هَذِهِ عَلامَةً طَيِّبَةً.

هِيَ عادَةً تَصيحُ في وَجْهي: «أَنْتِ لا تَزالينَ صَغيرَةً.»

أَوْ: «كَيْفَ تَظُنّينَ أَنَّكِ تَفْهَمينَ كُلَّ شَيْءٍ؟»

لَعَلَّ سُكوتَها اليَوْمَ سَبَبُهُ أَنَّها أَصْبَحَتْ شَديدَةَ الإِرْهاقِ، لا تَأْخُذُ نَصيبًا كافِيًا مِنَ النَّوْمِ، ولا تَجِدُ لَحْظَةً لِلرّاحَةِ.

هَلْ يَتْرُكونَني أُعاوِنُ جَدَّتي أَوْ أَنَّهُمْ يُصِرّونَ عَلى أَنَّني صَغيرَةٌ لا أَفْهَمُ شَيْئًا ولا رَأْيَ لي، غَيْرُ قادِرَةٍ عَلى تَحَمُّلِ المَسْئوليّات؟ ومَعَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ اسْتِثْناءٌ مِنْ طَريقَتِهِمُ المُعتادَةِ في تَجاهُلِ وُجودي. سَمِعْتُ أُمّي تَقولُ لي

ذاتَ مَساءٍ قَبْلَ أَنْ تُغادِرَ غُرْفَتي: «جَدَّتُكِ في حاجَةٍ إلى هُدوءٍ نَفْسِيٍّ شَديدٍ، فَهُناكَ شَيْءٌ لا نَعْرِفُهُ تَسَبَّبَ في ارْتِفاعِ ضَغْطِ دَمِها بِشَكْلٍ مُفاجِئٍ، طَبيبُ الوَحْدَةِ الرّيفِيَّةِ لِقَرْيَتِنا قالَ لي إنَّ جَدَّتَكِ لَمْ تَكُنْ تُعاني ارْتِفاعًا غَيْرَ عادِيٍّ لِضَغْطِ الدَّمِ، وهُوَ واثِقٌ أَنَّ هُناكَ سَبَبًا مُفاجِئًا أَثارَها ورَفَعَ ضَغْطَ دَمِها فَأَصابَتْها جُلْطَةٌ في المُخِّ. وهِيَ لا تَسْتَطيعُ أَنْ تَتَكَلَّمَ لِنَفْهَمَ مِنْها ما الَّذي حَدَثَ.»

ثُمَّ صَمَتَتْ لَحْظَةً تُفَكِّرُ، وأَضافَتْ: «أَوْ لَعَلَّها لا تُريدُ أَنْ تَتَكَلَّمَ!»

(٦)

اعْتادَتِ السَّيِّدَةُ نَجاة رُؤْيَةَ والِدَتِها راقِدَةً عَلى ظَهْرِها فَوْقَ فِراشِها في غُرْفَةِ ابْتِسام، لا تُحَرِّكُ إلا ذِراعَها اليُمْنى لِتَلْفِتَ الانْتِباهَ إِلى أَنَّها تُريدُ شَيْئًا.

كانَتْ نَجاةُ تَميلُ عَلى أُذُنِ أُمِّها تَهْمِسُ لَها: «ماذا

بِكِ يا أُمّي؟ ما الَّذي حَدَثَ لَكِ؟ حالَتُكِ لَيْسَتْ شَديدَةَ السّوءِ وسَتُشْفَيْنَ بِإِذْنِ اللهِ، فَلِماذا لا تَتَكَلَّمينَ؟»

فكانَتِ الجَدَّةُ تُغْمِضُ عَيْنَيْها كَأَنَّها تُحِسُّ بِأَلَمٍ شَديدٍ، ولا تُجيبُ.

وكانَتْ أَصْعَبُ فَتَراتِ النَّهارِ عِنْدَما تَقومُ الأُمُّ بِتَدْليكِ ظَهْرِ الجَدَّةِ بِالمَراهِمِ، لِمَنْعِ تَكْوينِ «قُرْحَةِ الفِراشِ»، وهِيَ الالْتِهاباتُ الجِلْدِيَّةُ المُؤْلِمَةُ الَّتي يُسَبِّبُها الرُّقادُ الطَّويلُ في وَضْعٍ واحِدٍ فَوْقَ الفِراشِ.

كانَ لا بُدَّ مِنْ وَضْعِ الجَدَّةِ عَلى جانِبِها، لِكَيْ تَقومَ الأُمُّ بِتَنْظيفِ الظَّهْرِ بِماءٍ دافِئٍ، وبَعْدَ تَجْفيفِهِ يَتِمُّ تَدْليكُهُ بِرِفْقٍ بِالمَراهِمِ الواقِيَةِ.

وكانَتِ ابْتِسام تُعاوِنُ والِدَتَها في هَذا كُلِّهِ، لَكِنَّها مُساعَدَةٌ لا تَخْرُجُ عَنِ التَّنفيذِ بِدِقَّةٍ لِما تَطْلُبُهُ مِنْها والِدَتُها، وإلا فَإِنَّها تَتَعَرَّضُ لِسَماعِ صَيْحَةِ غَضَبٍ حادَّةٍ تُعيدُها فَوْرًا إلى الدِّقَّةِ في تَنْفيذِ التَّعْليماتِ.

لِذَلِكَ فوجِئَتِ السَّيِّدَةُ نَجاة، عِنْدَما عادَتْ مِنْ عَمَلِها بَعْدَ ظُهْرِ اليَوْمِ الخامِسِ لِوُجودِ الجَدَّةِ في شَقَّتِها، عِنْدَما فَتَحَتْ بابَ غُرْفَةِ ابْتِسام، ووَجَدَتِ الجَدَّةَ جالِسَةً في فِراشِها. لَقَدْ وضَعَتْ يَدَها عَلى فَمِها لِتَمْنَعَ انْطِلاقَ صَيْحَةِ دَهْشَةٍ وقَلَقٍ.

كَيْفَ حَدَثَ هَذا؟ وَمتى حَدَثَ؟ مِنَ المُسْتَحيلِ أَنْ تكونَ الجَدَّةُ هِيَ الَّتي اعْتَمَدَتْ عَلى نَفْسِها في أَنْ تَجْلِسَ، فَمَنِ الَّذي ساعَدَها؟ بَلْ مَنِ الَّذي فَكَّرَ في أَنَّ الجَدَّةَ تَسْتَطيعُ أَوْ تُريدُ أَنْ تَجْلِسَ؟

لَمْ يَأْتِ ضِمْنَ الأَسْئِلَةِ الَّتي انْهالَتْ بِسُرْعَةٍ عَلى ذِهْنِ الأُمِّ، أَيُّ مَوْضِعٍ لابْنَتِها ابْتِسام!

وأَدْرَكَتِ الجَدَّةُ سَبَبَ دَهْشَةِ ابْنَتِها، فَحاوَلَتْ أَنْ تَقولَ: «ابْتِسام فَكَّرَتْ، وفَعَلَتْ كُلَّ شَيْءٍ.»

لَكِنَّ الأُمَّ لَمْ تَلْتَقِطْ إلا كَلِمَةَ «ابْتِسام» ومَعَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ هَذا كافِيًا لأَنْ تُدْرِكَ ما حَدَثَ. إِنَّها عَلى غَيْرِ



اسْتِعْدادٍ لِتَصْديقِهِ.

كانَتِ ابْتِسام تَقِفُ بِجِوارِ فِراشِ الجَدَّةِ قَلِقَةً، لا تَعْرِفُ هَلْ سَتَرْضى والِدَتُها أَوْ سَتَغْضَبُ.

وأَخيرًا وَجَدَتِ الجُرْأَةَ لِتَقولَ: «جَذَبْتُ جَدَّتي شَريفَة مِنْ ذِراعِها السَّليمَةِ لأُساعِدَها عَلى الجُلوسِ بَعْدَ أَنْ وَضَعْتُ كَثيرًا مِنَ المَسانِدِ حَوْلَها لِكَيْ لا تُعاوِدَ السُّقوطَ فَوقَ الفِراشِ، وطَلَبْتُ مِنْها أَنْ تَحْكِيَ لي إحْدى حِكاياتِ بَلْدَتِنا.»

ولَمْ تَعْرِفِ الأُمُّ هَلْ تُثْني عَلى ابْنَتِها أَوْ تُؤَنِّبُها لأَنَّها قامَتْ بِمِثْلِ تِلْكَ الخُطْوَةِ الجَريئَةِ بِغَيْرِ اسْتِئْذانِها.

وفَهِمَتِ ابْتِسام سِرَّ الأَفْكارِ المُتَضارِبَةِ في ذِهْنِ والِدَتِها، فَأَضافَتْ: «جُلوسُ جَدَّتي سَيُساعِدُها عَلى نُطْقِ الكَلِماتِ بِوُضوحٍ، وسَيَحْمي ظَهْرَها مِنْ قُرَحِ الفِراشِ.»

وبِسُرْعَةٍ هَمَسَتِ الأُمُّ لِنَفْسِها: «هَذا مَعْناهُ الاسْتِغْناءُ عَنْ أَصْعَبِ الواجِباتِ في تَمْريضِ أُمّي!»

وحاوَلَتِ الجَدَّةُ أَنْ تَقولَ وهِيَ تَتَطَلَّعُ حَوْلَها كَأَنَّها تَرى بَيْتَ ابْنَتِها لأَوَّلِ مَرَّةٍ: «رَبُّنا يَحْميكِ أَنْتِ وزَوْجَكِ، يا ابْنَتي.» ولَم تُجِبِ الأمُّ.

ولَمْ تَتَوَقَّفْ كَثيرًا عِنْدَ دَعْوَةِ أُمِّها لَها بِأَنْ «يَحْمِيَها رَبُّنا مَعَ زَوْجِها» مَعَ أَنَّ الطَّريقَةَ الَّتي قالَتْ بِها الجَدَّةُ دَعْوَتَها هَذِهِ المَرَّةَ، لَمْ يَكُنْ فيها شَيْءٌ مِنَ الاسْتِبْشارِ أَوِ التَّفاؤُلِ، وأَعْقَبَها تَنَهُّدٌ فيهِ كَثيرٌ مِنَ الهَمِّ.

كانَتِ الأُمُّ تَهْمِسُ لِنَفْسِها قائِلَةً: «كَيْفَ غابَ عَنّي أَنْ أَقومَ بِهَذِهِ الخُطْوَةِ السَّهْلَةِ الهامَّةِ الَّتي فَكَّرَتْ فيها ابْتِسام وقامَتْ بِتَنْفيذِها؟»

فَحَتّى تِلْكَ اللَّحْظَةِ لَمْ يَخْطُرْ بِبالِ السَّيِّدَةِ نَجاة أَنَّهُ في إِمْكانِ ابْنَتِها الصُّغْرى ابْتِسام أَنْ تُفَكِّر بِطَريقَةٍ مُخْتَلِفَةٍ عَنْ طَريقَتِها هِيَ في التَّفْكيرِ وفي النَّظَرِ إِلى الأَشْياءِ.

أَمّا ابْتِسام فكانَتْ تَقولُ لِنَفْسِها: «عِنْدَما أَحَسَّتْ جَدَّتي أَنَّني في حاجَةٍ إِلى سَماعِ حِكاياتِها، وأَنَّهُ لا يَزالُ

لَها دَوْرٌ في الحَياةِ، اسْتَجابَتْ لِمُحاوَلاتي لأُساعِدَها عَلى الجُلوسِ.»

(٧)

اعْتادَتْ جَدَّتي أَنْ تَراني أَقْرَأُ وأَكْتُبُ وأَنا جالِسَةٌ مُتَرَبِّعَةٌ عَلى سَريري، فَلَمْ يَكُنْ هُناكَ مَكانٌ في الغُرْفَةِ لِمِنْضَدَةٍ أَوْ مَكْتَبٍ، بَعْدَ أَنْ زَحَمَها دولابٌ وسَريرٌ كَبيرٌ بِالإِضافَةِ إِلى سَريري.

وتَصَوَّرْتُ أَنَّها تُحاوِلُ القِيامَ بدَوْرٍ في حَياتي، عِنْدَما وَجَدْتُها تُشَجِّعُني عَلى مُواصَلَةِ القِراءَةِ والكِتابَةِ. لَقَدْ جَعَلَتْني أَفْهَمُ أَنَّها تَقولُ: «اقْرَئي لي بَعْضَ ما تَكْتُبينَ.» أَوْ: «حَدِّثيني عَنْ مَوْضوعِ الكِتابِ الَّذي تُطالِعينَهُ.»

ولَعَلَّها أَرادَتْ أَنْ أَفْهَمَ أَنَّها حَريصَةٌ عَلى المُحافَظَةِ عَلى سِرّي، فَلا تُشيرُ بِشَيْءٍ إِلى كُتُبي أَوْ كُرّاسَتي عِنْدَما يَتَجَمَّعُ أَفْرادُ الأُسْرَةِ حَوْلَها لحَظاتٍ قَصيرَةً بَيْنَ يَوْمٍ

وآخَرَ، فالكُلُّ مَشْغولٌ ولا وَقْتَ لَدَيْهِ للاهْتِمامِ كَثيرًا بِجَدَّةٍ مَريضَةٍ مِنَ الصَّعْبِ تَبادُلُ الحَديثِ مَعَها، ويَتَصَوَّرونَ أَنَّها فَقَدَتِ الرَّغْبَةَ في الحَياةِ.

لِذَلِكَ قُلْتُ لِنَفْسي: «إذا كانَتْ جَدَّتي شَريفَة لا تَسْتَطيعُ أَنْ تَتَحَدَّثَ بِوُضوحٍ- وإن كان حديثُها قد أصبح الآن أكثر وضوحًا- فَهِيَ تَسْمَعُ بِوُضوحٍ..» وأَضَفْتُ: «لِماذا لا أَقْرَأُ لَها قِصَّتي الجَديدَةَ؟ سَتكونُ سَعيدَةً عِنْدَما أَخْتارُها كَمُسْتَمِعٍ وحيدٍ لِمُؤَلَّفاتي.»

كانَتْ جَدَّتي تَقْرَأُ لي بَعْضَ حِكاياتِ الأَطْفالِ أَثْناءَ زِياراتي لَها في قَرْيَتِنا وأَنا طِفْلَةٌ.

وكانَتْ قُدْرَةُ جَدَّتي عَلى أَنْ تَقْرَأَ تِلْكَ الكُتُبَ السَّهْلَة، مِنْ أَهَمِّ ما يَحْكيهِ عَنْها كُلُّ أَهْلِ قَرْيَتي عِنْدَما يَدورُ الحَديثُ حَوْلَها، ورُبَّما لَمْ توجَدْ سَيِّدَةٌ غَيْرُها في القَرْيَةِ تَعْرِفُ كَيْفَ تَقْرَأُ سَطْرًا واحِدًا في كِتابٍ.

وكانَ عِنْدَ جَدّي مَكْتَبَةٌ صَغيرَةٌ بِها كِتابانِ أَوْ ثَلاثَةٌ مِنَ

الكُتُبِ المُوَجَّهَةِ إلى الأَطْفالِ، يَضُمُّ كُلٌّ مِنْها مَجْموعَةَ حِكاياتٍ، وهَذا شَيْءٌ نادِرٌ وغَيْرُ مُعْتادٍ في قَرْيَتِنا، ولَعَلَّهُ مُنْعَدِمٌ في غَيْرِها مِنَ القُرى.

وأَذْكُرُ مِنْ بَيْنِ كُتُبِ جَدّي الَّتي قَرَأَتْها لي جَدَّتي شَريفَة مَرَّةً بَعْدَ أُخْرى، كِتابًا اسْمُهُ «عَزيزَة وعَدْلي» لَمْ تَكُنْ بِهِ أَيَّةُ رُسومٍ مُلَوَّنَةٍ، وكانَتْ حُروفُ الكِتابَةِ فيهِ كَبيرَةَ الحَجْمِ جِدًّا.

كانَتْ رُسومُهُ خُطوطًا بِاللَّوْنِ الأَسْوَدِ، لَكِنَّني لَمْ أَكُنْ في حاجَةٍ إلى تَأَمُّلِ تِلْكِ الرُّسومِ.

كانَتْ جَدَّتي، بِطَريقَتِها في الحَكْيِ، تَجْعَلُني أَرْسُمُ الصُّوَرَ في مُخَيِّلَتي عَلى نَحْوٍ أَفْضَلَ مِنْ رُسومِ الكِتابِ مُلَوَّنَةً أَوْ غَيْرَ مُلَوَّنَةٍ.

كانَتْ لَها قُدْرَةٌ غَيْرُ مَحْدودَةٍ عَلى التَّعْبيرِ بِنَبَراتِ صَوْتِها ومَلامِحِ وَجْهِها وحَرَكاتِ يَدَيْها وجِسْمِها لِتَجْسيدِ مَواقِفِ القِصَّةِ أَرْوَعَ مِنَ أَيِّ رَسْمٍ.

لِذَلِكَ فإِنَّهُ في عَصْرِ أَحَد الأَيَّامِ، والبَيْتُ لَيْسَ فيهِ غَيْري أَنا وجَدَّتي، ما إنْ سَمِعْتُها تَقولُ لي: «اقْرَئي لي بَعْضَ ما تَكْتُبينَ.» حَتّى انْتَقَلْتُ مِنْ سَريري وجَلَسْتُ بِجِوارِها عَلى فِراشِها وقُلْتُ: «إنَّها قِصَّةٌ، يا جَدَّتي!»

وفَهِمْتُ أَنَّها تقولُ وهِيَ تَتَنَهَّدُ: «والحَياةُ كُلُّها قِصَصٌ!»

وأَصابَتْني الحَيْرَةُ لِلطَّريقَةِ الَّتي قالَتْ بِها تِلْكَ العبارَةَ.. كانَتْ تُشيرُ إلى هَمٍّ كَبيرٍ يُقْلِقُها، لَكِنَّني كُنْتُ مُتَلَهِّفَةً عَلى أَنْ أَقْرَأَ قِصَّتي، فَلَمْ أَطْرَحْ مَزيدًا مِنَ الأَسْئِلَةِ.

(٨)

عِنْدَما انْتَهَتِ ابْتِسام مِنَ القِراءَةِ، وجَدَتْ جَدَّتَها تَنْظُرُ إلَيْها بِاهْتِمامٍ شَديدٍ.

سَأَلَتْها الجَدَّةُ: «هَذِهِ القِصَّةُ كُلُّها مِنْ خَيالِكِ، أَلَيْسَ كَذَلِكِ؟»

تَرَدَّدَتِ ابْتِسام قَليلًا ثُمَّ قالَتْ: «بَعْضُها مِنْ خَيالي، وبَعْضُها مِنْ حِكاياتٍ ووَقائعَ سَمِعْتُها.»

عادَتِ الجَدَّةُ تَسْأَلُ والكَلِماتُ تَخْرُجُ مِنْ فَمِها بِبُطْءٍ، لَكِنَّها الآنَ أَكْثَرُ وُضوحًا، وكَأَنَّ أَهَمِيَّةَ ما تَقولُ قَدْ ساعَدَتْها عَلى حَلِّ عُقْدَةِ لِسانِها: «ومِنْ أَيْنَ جاءَتْ لَكِ فِكْرَةُ الرَّجُلِ الَّذي كانَ يُوشِكُ أَنْ يَتزَوَّجَ أُخْتَهُ في الرَّضاعِ؟»

وتَمَهَّلَتِ ابْتِسام قَبْلَ أَنْ تُجيبَ.

كانَتْ تَتَوَقَّعُ أَنْ تَسْمَعَ مِنْ جَدَّتِها ثَناءً أَوْ تَعْليقًا عَلى القِصَّةِ: أَنْ تَمْتَدِحَ الفِكْرَةَ، أَوْ تَقولَ إِنَّها مُشَوِّقَةٌ جَذّابَةٌ، أَوْ إِنَّ الشَّخْصِيّاتِ تَتَصَرَّفُ بِطَريقَةٍ مَفْهومَةٍ ومَعْقولَةٍ.

لَكِنَّ جَدَّتَها تَرَكَتْ كُلَّ هَذا، وتَوَقَّفَتْ عِنْدَ جُزْئِيَّةٍ اسْتَخْدَمَتْها ابْتِسام لِتُديرَ قِصَّتَها حَوْلَ مَشاعِرِ فَتاةٍ تَعَطَّلَتْ إِجْراءاتُ إِتْمامِ زَواجِها في آخِرِ لَحْظَةٍ بِسَبَبٍ لَمْ تَكُنِ ابْتِسام تَفْهَمُ حَقيقَتَهُ بِالضَّبْطِ، وهُوَ «الأُخْتُ بِالرَّضاعِ».

(٩)

أَثْناءَ زِياراتِها السّابِقَةِ لِجَدَّتِها، كَثيرًا ما كانَتِ ابْتِسام تَجْلِسُ لِتَلْعَبَ، لا تُلاحِظُها عُيونُ بَقِيَّةِ نِساءِ القَرْيَةِ وهُنَّ يَتَجَمَّعْنَ لِزِيارَةِ جَدَّتِها، أَوْ عِنْدَما تَذْهَبُ جَدَّتُها مَعَ والِدَتِها في زِيارَةٍ لِواحِدَةٍ مِنْ أَهْلِ البَلَدِ.

لَكِنَّ ابْتِسام كانَتْ كُلُّها آذانًا مُصْغِيَةً وعُيونًا مَفْتوحَةً، تَلْتَقِطُ وتَحْفَظُ.

لَقَدْ سَمِعَتْ حِكايَةً عَنْ أَخٍ غَيْرِ شَقيقٍ جاءَ لِوالِدِهِ مِنْ زَوْجَةٍ أُخرى، ولَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَعْرِفُ عَنْهُ شَيْئًا، إلى أَنْ ظَهَرَ فَجْأَةً عِنْدَ تَوْزيعِ ميراثِ الأَبِ، فَانْقَسَمَ الرَّأْيُ حَوْلَ حَقيقَتِهِ، البَعْضُ يَقولُ إِنَّهُ مُحْتالٌ، والبَعْضُ يَنْصَحُ بِالتَّرَوّي لِلتَّأَكُّدِ مِنْ صِحَّةِ رِوايَتِهِ.

وسَمِعَتْ حِكايَةَ ابْنٍ اسْتَبْدَلوهُ عِنْدَ الوِلادَةِ بِطِفْلٍ آخَرَ، وهُوَ ما فَعَلَتْهُ إِحْدى المُوَلِّداتِ (القابِلات)، فَقَدْ وَضَعَتْ خُفْيَةً طِفْلًا ذَكَرًا في مَكانِ طِفْلَةٍ أُنْثى. وعِنْدَما

اعْتَرَفَتِ المُوَلِّدَةُ بِما فَعَلَتْ، تَمَّ إِبْلاغُ الشُّرْطَة، فَأَلْقَتِ القَبْضَ عَلى الأُمِّ والأَبِ، ثُمَّ عادَتِ المُوَلِّدَةُ فَأَنْكَرَتِ اعْتِرافاتِها، لَكِنَّ المَحْكَمَةَ حَكَمَتْ عَلَيْها بِالحَبْسِ ثَلاثَةَ أَشْهُرٍ بِتُهْمَةِ «إِزْعاجِ السُّلُطاتِ».

كَما سَمِعَتْ حِكايَةَ زَواجٍ كادَ يَتَوَقَّفُ قَبْلَ إِجْراءاتِ كَتْبِ الكِتابِ، لأَنَّ أَحَدَ أَقْرِباءِ العَريسِ قالَ إِنَّهُ تَذَكَّرَ أَنَّ العَروسَ قَدْ رَضَعَتْ مِنَ أُمِّ العَريسِ وهُما طِفْلانِ عُمْرُهُما شُهورٌ، ثُمَّ تَبَيَّنَ أَنَّ العَروسَ قَدْ رَضَعَتْ مَرَّةً واحِدَةً، فَأَفْتى المَأْذونُ الَّذي جاء لِكِتابَةِ عَقْدِ الزَّواجِ بِأَنَّ هَذا لا يَجْعَلُ مِنَ الزَّوْجَةِ «أُخْتًا بِالرَّضاعِ» واسْتَمَرَّتْ إِجْراءاتُ «كَتْبِ الكِتابِ» لأَنَّ الأُخُوَّةَ في الرَّضاعِ، كَما قالَ، لا تَتَحَقَّقُ إِلا بِثَلاثِ رَضَعاتٍ مُشْبِعاتٍ عَلى الأَقَلِّ.

كُلُّ هَذا اخْتَلَطَ في خَيالِ ابْتِسام، بِاعْتِبارِها حَوادِثَ، إِذا لَمْ تَنْكَشِفْ حَقيقَتُها في الوَقْتِ المُناسِبِ، تُؤَدّي إِلى إِيقافِ مَشْروعاتِ الزَّواجِ قَبْلَ أَنْ تَتِمَّ أَوْ تُبْطِلُها بَعْدَ أَنْ تَتِمَّ، وبِخاصَّةٍ الأُخُوَّةُ في الرَّضاعِ، لأَنَّ الزَّواجَ في

مِثْلِ هَذِهِ الحالَةِ حَرامٌ وإِثْمٌ كَبيرٌ.

فَلِماذا ثَبَتَتْ حِكايَةُ «الأُخْتِ بِالرَّضاعِ» دونَ غَيْرِها مِنَ الحِكاياتِ، وبِإِلْحاحٍ شَديدٍ، في ذاكِرَةِ ابْتِسام؟

لا، إِنَّها لَيْسَتْ قِصَّةَ تِلْكَ الفَتْوى الَّتي قالَها المَأْذونُ، لَكِنَّهُ حِوارٌ آخَرُ سَمِعَتْهُ مُصادَفَةً في مُناسَبَةٍ أُخْرى، أَحاطَ بِها غُموضٌ شَديدٌ، جَعَلَها تُفَكِّرُ أَيّامًا وأَسابيعَ فيما سَمِعَتْ، ثُمَّ جَعَلَها تَسْتَخْدِمُهُ فيما بَعْدُ عُقْدَةً لِقِصَّتِها.

قالت ابتسام للجدة: «تعبير «أخت بالرضاع» سمعته في بيت عمي إسماعيل.»

قالَتِ الجَدَّةُ تَسْأَلُ في اهْتِمامٍ شَديدٍ: «هَلْ سَمِعْتِهِ مِنْ عَمِّكِ نَفْسِهِ؟»

هُنا أَحَسَّتِ ابْتِسام أَنَّها تُواجِهُ تَحْقيقًا مِثْلَ الَّذي قامَتْ بِهِ وَكيلَةُ المَدْرَسَةِ عِنْدَما أُصيبَتْ زَميلَةٌ بِكَسْرٍ في ذِراعِها أَثْناءَ اللَّعِبِ، فَقالَتْ لِنَفْسِها:

«يَبْدو أَنَّني قَدْ أَدْخَلْتُ نَفْسي، بِغَيْرِ أَنْ أَقْصِدَ، في مَوْضوعٍ حَسّاسٍ يُثيرُ اهْتِمامَ جَدَّتي بِقُوَّةٍ.»

ثُمَّ عادَتْ تَلومُ نَفْسَها: «لَقَدْ كَتَمْتُ هَذا المَوْضوعَ طَويلًا، فَلِماذا أُثيرُهُ الآنَ؟ وهَلْ مِنَ اللائِقِ أَنْ أَنْقُلَ إلى جَدَّتي ما سَمِعْتُ مُصادَفَةً مِنَ الأَخِ الوَحيدِ لِوالِدي؟ قَدْ يَتَسَبَّبُ هَذا في خِلافاتٍ عائِلِيَّةٍ أَكونُ أَنا السَّبَبَ فيها!»

قالَتْ لِجَدَّتِها: «هَذا تَعْبيرٌ سَمِعْتُهُ مُنْذُ وَقْتٍ بَعيدٍ، ولَسْتُ أَذْكُرُ المُناسَبَةَ، ولا مَنِ الَّذي قالَه.»

قالَتِ الجَدَّةُ في اهْتِمامٍ: «إذا تَذَكَّرْتِ شَيْئًا، أَخبِريني به، فأنا أُريدُ أن أَسْمَعَهُ مِنْكِ.»

وصَمَتَتِ ابْتِسام، فَأَضافَتِ الجَدَّةُ:

«وحِكايَةُ الأُخْتِ بِالرَّضاعِ مَوْضوعٌ كَبيرٌ بِالنِّسبَةِ لِقِصَّةٍ تَكْتُبُها فَتاةٌ في مِثْلِ سِنِّكِ! أَقْصِدُ الحَديثَ حَوْلَ العَقَباتِ الَّتي تَقِفُ أَمامَ إتْمام الزَّواجِ.. ابْحَثي عَنْ

سَبَبٍ آخَرَ لأَحْزانِ بَطَلَةِ قِصَّتِكِ - سَبَبٍ يَكونُ قَريبًا مِنْ خِبْراتِكِ!»

(١٠)

لَسْتُ أَدْري لِماذا أَحْسَسْتُ أَنَّ عِباراتِ جَدَّتي فيها نَوْعٌ مِنَ التَّحْذيرِ!

إِنَّها تُحَذِّرُني مِنْ قِراءَةِ قِصَّتي لأَحَدٍ، لِذَلِك قَرَّرْتُ أَنْ أُخْفِيَ قِصَّتي «أَحْزانَ فَتاة» في قاعِ دُولابي، تَحْتَ المِفْرَشِ الَّذي أَسْجُنُ عِنْدَهُ كُلَّ أَسْراري!

لَكِنَّني مُنْذُ أَنْ قَرأْتُ «أَحْزان فَتاة» لاحَظْتُ أَنَّ أَشْياءَ كَثيرَةً قَدْ تَغَيَّرَتْ بِسُرْعَةٍ في جَدَّتي!

اسْتَعادَتْ قُدْرَتَها كامِلَةً عَلى النُّطْقِ بِكُلِّ كَلِمَة وبِوُضوحٍ، ومَعَ ذَلِكَ لَمْ تَجِدْ غَيْري تَتَبادَلُ مَعَهُ أَيَّ حَديثٍ حَقيقِيٍّ.

وبَدَأَتْ تَطْلُبُ مِنّي أَنْ أُساعِدَها لِتَتَمَكَّنَ، وَحْدَها،

مِنْ رَفْعِ جانِبِها الأَيْمَنِ عَنِ الفِراشِ، إلى أَنْ أَصْبَحَتْ تَفْعَلُ ذَلِكَ بِغَيْرِ مُعاوَنَتي، فَلا تَتْرُكُ ظَهْرَها طَويلًا في نَفْسِ الوَضْعِ.

وبَدَأَتْ تَسْتَجيبُ بِسُرعَةٍ لِتَدْريبي لِكَيْ تَعْتَمِدَ عَلى ذِراعِها اليُمْنى، وتَزْحَفُ مُسْتَعينَةً بِالمَسانِدِ، إلى أَنْ تَجْلِسَ بِقَليلٍ مِنْ مُساعَدَتي.

أَحْسَسْتُ أَنَّ رَغْبَةَ الحَياةِ قَدْ مَلأَتْها.

وفي كُلِّ يَوْمٍ تَسْأَلُني: «أَلَمْ تَتَذَكَّري شَيْئًا جَديدًا عَنِ الحَديثِ الَّذي دارَ في بَيْتِ عَمِّكِ؟»

والحَقيقَةُ أَنَّني تَذَكَّرْتُ الكَثيرَ.

لَمْ أَتَذَكَّرْ كُلَّ شَيءٍ مَرَّةً واحِدَةً، لَكِنَّني كُنْتُ أُحَمْلِقُ طَويلًا في الظَّلامِ وأنا مُسْتَلْقِيَةٌ فَوقَ ظَهْري أَسْتَعِدُّ لِلنَّوْمِ، أُحاوِلُ أَنْ أَسْتَعيدَ صورَةَ وَجْهِ كُلِّ شَخْصٍ، وصَوْتَ كُلِّ كَلِمَةٍ.

ومَعَ ذَلِكَ ظَلِلْتُ أَقولُ لِجَدَّتي: «لَيْسَ هُناكَ شَيْءٌ جَديدٌ!»

(١١)

أَمّا الجَديدُ، فَقَدْ طَرَأَ عَلى ذِهْني ذاتَ صَباحٍ.

قُلْتُ لِنَفْسي: «إذا كانَتْ جَدَّتي قَدِ اسْتَعادَتْ قُدْرَتَها عَلى النُّطْقِ، وعَلى التَّقَلُّبِ ولَوْ قَليلاً فَوْقَ الفِراشِ، وعَلى الجُلوسِ وَحْدَها بِمُساعَدَتي، فَلِماذا لا أُعاوِنُها عَلى الوُقوفِ؟»

ولَمْ أُفَكِّرْ في أَنَّها يُمْكِنُ أَنْ تُعاوِدَ المَشْيَ.

وذاتَ صَباحٍ، وكُنّا وَحْدَنا، فُوجِئَتْ جَدَّتي، بَعْدَ أَنْ ساعَدْتُها عَلى الجُلوسِ فَوْقَ فِراشِها بِأَنَّني بَدَأْتُ بِتَحْويلِ اتِّجاهِ ساقَيْها نَحْوَ حافَةِ الفِراشِ.

سَأَلَتْني في دَهْشَةٍ تَكادُ تَصِلُ إلى حَدِّ الفَزَعِ: «إلى أَيْنَ سَتَذْهَبينَ بي؟»

قُلْتُ: «لِماذا لا تُحاوِلينَ أَنْ تَجْلِسي عَلى حافَةِ الفِراشِ؟»
قالَتْ جَدَّتي: «لَنْ تَتَحَمَّلَ ساقي اليُسْرى ثِقْلَ جِسْمي!»
قُلْتُ: «بَدَلًا مِنَ أَنْ تَجْلِسي وساقاكِ مَبْسوطَتانِ أَمامَكِ فَوْقَ الفِراشِ لِماذا لا نُعطي السّاقَيْنِ نَوْعًا مِنَ التَّغْييرِ؟ تَجْلِسينَ وساقاكِ مُتَدَلِّيَتانِ مِنْ فَوْقِ حافَةِ الفِراشِ، في حينِ تُلامِسُ قَدَماكِ الأَرْضَ.»
ولَمْ نَسْتَطِعْ إِكْمالَ المُحاوَلَةِ الأولى.
كانَتْ قَدْ فَقَدَتِ الثِّقَةَ في قُدْرَةِ ساقِها اليُسْرى عَلى أَنْ تَقومَ بِأَيِّ دَوْرٍ.
لَكِنْ في المَرَّةِ الثّانِيَةِ، أَصْبَحَتْ قَدَماها تَسْتَنِدانِ فَوْقَ وِسادَةٍ وَضَعَتْها عَلى الأَرْضِ، في حينِ تُحيطُ المَسانِدُ بِجِذْعِها وهِيَ جالِسَةٌ عَلى حافَةِ السَّريرِ، وذِراعُها اليُمْنى السَّليمَةُ تُمْسِكُ حافَةَ النّافِذَةِ المُجاوِرَةِ لِفِراشِها.



وتَجَرَّأْتُ فَحاوَلْتُ أَنْ أُساعِدَها، مَرَّةً بَعْدَ أُخْرى، على الوُقوفِ مُسْتَنِدَةً إلى الحائِطِ بِجِوارِ النّافِذَةِ، لَكِنَّ جِسْمَها كانَ يَتَهاوى كُلَّ مَرَّةٍ عَلى الفِراشِ.

(١٢)

قُلْتُ لِنَفْسي: «الحَماسُ الَّذي مَلأَها بَعْدَ اليَوْمِ الَّذي قَرَأْتُ لَها فيهِ قِصَّتي، قَدْ بَدَأَ يَفْتُرُ.»

ولِسَبَبٍ لا أَدْريهِ، هَمَسْتُ لِنَفْسي وأَنا أُحَمْلِقُ في الظَّلامِ قَبْلَ أَنْ أُغْمِضَ عَيْنَيَّ لأَنامَ: «هَلْ هُناكَ عَلاقَةٌ بَيْنَ الحَديثِ الَّذي سَمِعْتُهُ في بَيْتِ عَمّي، ومَدى الرَّغْبَةِ في الحَياةِ عِنْدَ جَدَّتي؟»

ولَعَلَّ السَّبَبَ في أَنَّني سَأَلْتُ نَفْسي هَذا السُّؤالَ، أَنَّهُ كُلَّما تَباعَدَتْ أَسْئِلَةُ جَدَّتي حَوْلَ ذَلِكَ المَوْضوعِ، وَجَدْتُ اهْتِمامَها يَقِلُّ بِأَنْ تَسْتَعيدَ قُدْرَتَها عَلى الحَرَكَةِ.

وتَذَكَّرْتُ أَنَّ جَدَّتي قَدْ أَفْهَمَتْني، بِطَريقَةٍ غَيْرِ مُباشِرَةٍ،

أَنْ أَتَجَنَّبَ الإشارَةَ أَمامَ الأُسْرَةِ إلى مَوْضوعِ «الأُخْتِ بِالرَّضاعِ».

قُلْتُ لِنَفْسي: «سَأَكْتُبُ كُلَّ ما تَذَكَّرْتُهُ مِنْ حَديثٍ سَمِعْتُهُ في بَيْتِ عَمّي إسْماعيل.. إنَّني لا أَعْرِفُ الرَّجُلَ الَّذي كانَ يَتَحَدَّثُ مَعَ عَمّي، لَكِنَّني أَتَذَكَّرُ وَجْهَهُ بِوُضوحٍ.. سَأَصِفُ مَلامِحَهُ. وإذا سَأَلَتْني جَدَّتي مَرَّةً أُخْرى، سَأَقْرَأُ لَها ما تَذَكَّرْتُ.»

ولأَنَّني أَرَدْتُ التَّأَكُّدَ مِنْ صِحَّةِ اسْتِنْتاجاتي، قُلْتُ لِجَدَّتي صَباحَ اليَوْمِ التّالي: «لَقَدْ تَذَكَّرْتُ بَعْضَ الكَلِماتِ الَّتي سَمِعْتُها في بَيْتِ عَمّي إسْماعيل.»

ظَهَرَ بَريقٌ تَلأْلأَ في عَيْنَيْ جَدَّتي، ووَجَدْتُها لِلْمَرَّةِ الأولى مُنْذُ مَرَضِها تَرْفَعُ جِذْعَها وتَجْلِسُ عَلى فِراشِها بِغَيْرِ مَعونَتي، بَلْ قالَتْ لي: «ساعِديني عَلى أَنْ أَقِفَ.»

عاوَنْتُها حَتّى أَنْزَلَتْ ساقَيْها مِنْ فَوْقِ الفِراشِ، ثُمَّ مَدَّتْ ذِراعَها اليُمْنى وأَمْسَكَتْ حافَةَ النّافِذَةِ، ثُمَّ جَذَبَتْ

جِذْعَها وأَنا أُساعِدُها.

لَقَدْ وَقفَتْ! وتَشَبَّثَتْ يَدُها السَّليمَةُ بِحافَةِ النّافِذَةِ، فَلَمْ يَسْقُطْ جَسَدُها عَلى الفِراشِ. هأَنذا أَرى جَدَّتي واقِفَةً أمامي كَما اعْتَدْتُ أَنْ أَراها في بَيْتِها بِقَرْيَتِنا.

الضَّوْءُ يَتَدَفَّقُ مِنَ النّافِذَةِ المَفْتوحَةِ خَلْفَها، يَتَخَلَّلُ شَعْرَها الأَبْيَضَ، وهِيَ تَقِفُ بِوَجْهِها العَطوفِ الحَكيمِ تَتَطَلَّعُ نَحْوي، تَنْتَظِرُ في تَلَهُّفٍ أَنْ أَنْقُلَ إِلَيْها ما تَذَكَّرْتُ.

قلْتُ لِجَدَّتي: «حَذَّرَتْني والِدَتي مِنْ أَنْ أَتَسَبَّبَ لَكِ في انْفِعالٍ شَديدٍ.»

قالَتْ: «لَقَدْ أَصْبَحْتُ مُسْتَعِدَّةً لِسَماعِ أَيِّ شَيْءٍ أَخْرُجُ بِهِ مِنْ هَذا التَّخَبُّطِ في الظَّلامِ الَّذي أعيشُ فيهِ.»

لَمْ أَفْهَمْ ما الَّذي تَقْصِدُهُ جَدَّتي!

سَأَلْتُها أَوَّلَ سُؤالٍ خَطَرَ عَلى ذِهْني: «هَلْ حَياتُكِ مَعَنا، يا جَدَّتي، تَسْتَحِقُّ هَذا الوَصْفَ؟»

قالَتْ جَدَّتي في لَهْجةٍ تُعَبِّرُ بِها عَنْ مُعاناةٍ شَديدَةٍ:

«بَلْ هُوَ ظَلامٌ يُحيطُ بي مُنْذُ عَصْرِ اليَوْمِ الَّذي سَبَقَ إصابَتي بِالشَّلَلِ النِّصفِيِّ»

كُنْتَ أَسْمَعُ لأَوَّلِ مَرَّةٍ في حَياتي أَحَدَ الكِبارِ يُصَرِّحُ لي بِمِثْلِ هَذِه العِباراتِ وبِهَذِهِ اللَّهْجَةِ ذاتِ المَعاني الَّتي اقْشَعَرَّ لَها بَدَني.

هَلْ أَقْرَأُ لَها ما ساعَدَتْني ذاكِرَتي عَلى اسْتِعادَتِهِ مِنْ ذَلِكَ الحَديثِ الغَريبِ، الَّذي سَمِعْتُهُ مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ عامٍ، فَيَشْتَدَّ بِها الانْفِعالُ، وتُصيبَها نَوْبَةٌ جَديدَةٌ تَقْضي عَلَيْها هَذِهِ المَرَّةَ؟

ولاحَظَتْ جَدَّتي تَرَدُّدي، فَسَأَلَتْني: «هَلْ تَتَذَكَّرينَ مَنْ هُمُ الَّذينَ سَمِعْتِهِمْ يَتَحَدَّثونَ؟»

تَغَلَّبْتُ عَلى تَرَدُّدي وقُلْتُ: «عَمّي إسْماعيل ورَجُلٌ آخَرُ.»

سَأَلَتْ جَدَّتي: «كانا وَحْدَهُما؟»

قُلْتُ في تَأْكيدٍ: «وَحْدَهُما تَمامًا، وكانا يَتَحَدَّثانِ هَمْسًا فَهِمْتُ مِنْهُ أَنَّهُما لا يُريدانِ أَنْ يَسْمَعَ هَمْسَهُما أَحَدٌ.. كُنْتُ نائِمَةً خَلْفَهُما تَمامًا، في رُكْنِ المَضْيَفَةِ وَراءَ الأَريكَةِ الكَبيرَةِ الَّتي كانا يَجْلِسانِ عَلَيْها فَلَمْ يَشْعُرا بِوُجودي.»

سَأَلَتْني: «ومَنْ هَذا الرَّجُلُ الآخَرُ؟»

قُلْتُ: «رَجُلٌ غَريبٌ، كانَتْ هُناكَ شامَةٌ بُنِّيَّةُ اللَّوْنِ كَبيرَةُ الحَجْمِ بارِزَةٌ عَلى طَرَفِ أَنْفِهِ!»

تَرَكَتْ جَدَّتي ما نَحْنُ فيهِ مِنْ حَديثٍ، وقالَتْ وقَدِ امْتَلأَتْ تَحَفُّزًا: «ساعِديني عَلى أَنْ أَجْلِسَ.»

انْفِعالُها كانَ أَقْوى مِنْ قُدْرَتِها عَلى أَنْ تَسْتَمِرَّ واقِفَةً، فَأَحَطْتُ جِذْعَها بِساعِدَيَّ، وعاوَنْتُها إِلى أَنْ جَلَسَتْ فَوْقَ حافَةِ الفِراشِ.

واسْتَمَرَّ صَمْتُها فَتْرَةً تَصَوَّرْتُها طَويلَةً جِدًّا، ثُمَّ سَمِعْتُ صَوْتَها يُتَمْتِمُ في هَمْسٍ خَفيضٍ: «إِنَّهُ مَحْروس إِذَنْ-

آخرُ شَخْصٍ رَأَيْتُهُ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ الَّتي أَصابَني فيها المَرَضُ.»

سَأَلْتُها: «مَنْ هُوَ مَحْروس؟»

قالَتْ: «ابْنُ الدّايَةِ (المُوَلِّدَةِ) الَّتي شَهِدَتْ وِلادَةَ مُعْظَمِ أَطْفالِ القَرْيَةِ، ويَعْمَلُ الآن في تَسْجيلِ الأَراضي بِمَكْتَبِ أَحَدِ المُحامينَ بِمَرْكَزِ مَغاغَةَ.»

سَأَلْتُ نَفْسي: «ولِماذا اهْتَمَّتْ جَدَّتي بِأَنْ تَذْكُرَ لي أَنَّه ابْنُ المُوَلِّدَةِ؟ فليس من عادتِها أن تَذكُرَ لي شَيْئًا عَنْ أُمَّهات مَنْ تُعَرِّفُني عَلَيْهِمْ.»

وكُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّ هَذِهِ المُوَلِّدَةَ شَخْصِيَّةٌ غَريبَةٌ حَقًّا، فَكُلَّما ذَهَبْتُ مَعَ والِدَتي وجَدَّتي لِزِيارَةِ بَيْتٍ في القَرْيَةِ، وجَدْناها قَدْ سَبَقَتْنا إلى هُناكَ، حَتّى قُلْتُ إنَّها تُريدُ مِنّا شَيْئًا.

عادَتْ جَدَّتي تَسْأَلُ: «وما الحَديثُ الَّذي كانا يَتَهامَسانِ بِهِ؟»

أَخْرَجْتُ الوَرَقَةَ الَّتي سَجَّلْتُ فيها ما تَذَكَّرْتُهُ مِنْ حِوارٍ اسْتَمَعْتُ إِلَيْهِ بِغَيْرِ قَصْدٍ بَيْنَ عَمّي إسماعيل وذَلِكَ الرَّجُلِ الغَريبِ.

(١٣)

قَرَأَتِ ابْتِسام: «قالَ عَمّي إِسْماعيل في غَيْظٍ:

«لِماذا لا تُريدُ بَيْعَ الأَرْضِ؟ ابْنَتُها تَرَكَتِ البَلَدَ مُنْذُ سَنَواتٍ طَويلَةٍ، وهِيَ لا تَزْرَعُ ولا تَحْصُدُ، ولَكِنْ تُؤَجِّرُ الأَرْضَ وتَكْتَفي بِإِنْفاقِ ما تَحْصُلُ عَلَيْهِ!»

قالَ الرَّجُلُ الغَريبُ: «هَلْ نَسيتَ حِكايَةَ الأُخْتِ في الرَّضاعِ؟»

قالَ عَمّي إِسْماعيل: «هَذِهِ حِكايَةٌ انْتَهَتْ مُنْذُ زَمانٍ.»

قالَ الغَريبُ: «اضْغَطْ عَلَيْها بِها.. قُلْ لَها إِنَّ والِدَتي شاهَدَتْ والِدَتَكِ، رَحِمَها اللهُ، تُرْضِعُ ابْنَتَها

ثَلاثَ رَضَعاتٍ مُشْبِعاتٍ، وستَشَهْدُ والِدَتي بِذَلِكَ ولَنْ تُخالِفَ أَيَّ طَلَبٍ أَطْلُبُهُ مِنْها.»

قالَ إسْماعيل: «تَقْصِدُ أَنَّهُ إذا شاعَتْ هَذِهِ الحِكايَةُ لَنْ يَجْرُؤَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلى وَضْعِ قَدَمِهِ في هَذِهِ القَرْيَةِ مَرَّةً أُخْرى؟»

فَأَسْرَعَ الغَريبُ يَقولُ: «ويُضْطَرّونَ إلى بَيْعِ الأَرْضِ.»»

(١٤)

هُنا تَوَقَّفَتِ ابْتِسام عَنْ قِراءَةِ ما سَمِعَتْ.

قالَتِ الجَدَّةُ: «وماذا فَعَلا بَعْدَ ذَلِكَ؟»

قالَتِ ابْتِسام: «سَمِعا صَوْتَ شَخْصٍ يَقْتَرِبُ فَتَوَقَّفا فَوْرًا عَنِ الحَديثِ. وكانَ لِهَذا أَثَرُهُ القَوِيُّ في أَنَّني أَدْرَكْتُ أَنَّني اسْتَمَعْتُ إلى أَمْرٍ بالِغِ السِّرِّيَّةِ والخُطورَةِ، وأَنَّ حَديثَهُما يُخْفي أَشْياءَ مُهِمَّةً لَمْ أَفْهَمْها، فَظَلِلْتُ

أَسْتَعيدُ كُلَّ كَلِمَةٍ سَمِعْتُها لَعَلّي أَفْهَمُ.»

عادَتِ الجَدَّة تَقولُ: «أُريدُ أَنْ أَسْمَعَ ثانِيَةً، بِدِقَّةٍ وَوُضوحٍ، كَيْفَ قالَ مَحْروس ما قالَهُ عَنْ أُمِّهِ المُوَلِّدَةِ!»

وبِغَيْرِ أَنْ تُعيدَ ابْتِسام النَّظَرَ في الوَرَقَةِ الَّتي كَتَبَتْها، قالَتْ: «قالَ إِنَّها لَنْ تُخالِفَ أَيَّ طَلَبٍ يَطْلُبُهُ مِنْها.»

وعادَتِ الجَدَّةُ تَقولُ في اهْتِمامٍ أَشَدَّ:

«سُؤالي لا عَلاقَةَ لَهُ بِما سَمِعْتِ، بَلْ يَتَعَلَّقُ بِمَشاعِرِكِ وما تَلَقّاهُ عَقْلُكِ وإِحْساسُكِ. إِنَّكِ مِثْلُ كُلِّ صاحِبِ مَوْهِبَةٍ في تَأْليفِ القِصَصِ والحِكاياتِ، تُجيدينَ مُلاحَظَةَ النّاسِ وفَهْمَهُمْ، فَهَلْ فَهِمْتِ مِنْ لَهْجَةِ ذَلِكَ الحَديثِ وطَريقَتِهِما في الكَلامِ، أَنَّ المُوَلِّدَةَ شاهَدَتْ تِلْكَ الرَّضعاتِ الثَّلاثَ فِعْلًا، أَوْ أَنَّها سَتَكونُ عَلى اسْتِعْدادٍ لأَنْ تَشْهَدَ بِذَلِكَ لِمُجَرَّدِ الاسْتِجابَةِ لِطَلَبٍ مِنِ ابْنِها مَحْروس؟»

وبِغَيْرِ تَرَدُّدٍ قالَتِ ابْتِسام في ثِقَةِ شَخْصٍ ناضِجٍ يُقَدِّرُ تَمامًا مَسْئولِيَّةَ ما يَقولُ: «كانَ واضِحًا أَنَّهُما يَتآمَرانِ، وأَنَّ أُمَّ مَحْروس المُوَلِّدَةَ سَتُشارِكُهُما في المُؤامَرَةِ. لِذَلِكَ أَحْسَسْتُ بِالخَوْفِ، وخَشيتُ أَنْ أَفْتَحَ فَمي بِكَلِمَةٍ عَمّا سَمِعْتُ.»

وصَمَتَتِ ابْتِسام لَحْظَةً ثُمَّ أَضافَتْ: «كانَ والِدي سَيَقولُ إِنَّني أَتَخَيَّلُ أَشْياءَ عَنْ أَخيهِ، ويَمْنَعُني مِنَ السَّفَرِ إلى قَرْيَتِنا مَرَّةً أُخْرى.»

(١٥)

فُوجِئَتِ ابْتِسام بِجَدَّتِها تَتَنَهَّدُ في ارْتِياحٍ، وتَقولُ كَأَنَّما انْزاحَ عَنْها هَمٌّ ثَقيلٌ: «الحَمْدُ لِلهِ!»

ثُمَّ أَشْرَقَ وَجْهُها بِابْتِسامَتِها البَشوشِ الَّتي لَمْ تُشاهِدْها ابْتِسام مُنْذُ أَصابَها المَرَضُ. ومَدَّتِ الجَدَّةُ ذِراعَها اليُمْنى، وأَمْسَكَتْ حافَةَ النّافِذَةِ، وجَذَبَتْ جِذْعَها، فَوَقَفَتْ.

وَلِدَهْشَةِ ابْتِسام، وَجَدَتْ جَدَّتَها تَخْطو خُطْوَةً بِساقِها اليُمْنى السَّليمَةِ، ثُمَّ تَبْذُلُ في حَماسٍ جَهْدًا مُتَواصِلًا إلى أَنْ حَمَلَتْ ساقَها الأُخْرى عَلى أَنْ تَتَحَرَّكَ إلى الأَمامِ حَرَكَةً واحِدَةً بَطيئَةً.

لَقَدِ اسْتَطاعَتِ الجَدَّةُ أَنْ تَسْتَعيدَ قُدْرَتَها عَلى المَشْيِ.

قالَتْ: «ساعِديني، يا ابْتِسام، لأَخْرُجَ مِنْ هَذِهِ الغُرْفَةِ.»



(١٦)

كَمْ كانَتِ المُفاجَأَةُ كَبيرَةً عِنْدَما فَتَحَتِ السَّيِّدَةُ نَجاة بابَ الشَّقَّةِ بِمِفْتاحِها عِنْدَ عَوْدَتِها مِنْ عَمَلِها، وفُوجِئَتْ بِوالِدَتِها تَجْلِسُ عَلى أَحَدَ مَقاعِدِ الصّالَةِ وقَدْ أَشْرَقَ وَجْهُها بِابْتِسامَةٍ عَريضَةٍ.

صاحَتْ نَجاة في لَهْجَةٍ أَقْرَبَ إلى الفَزَعِ: «كَيْفَ اسْتَطَعْتِ الوُصولَ إلى هُنا، يا أُمّي؟»



قالَتِ الجَدَّةُ شَريفَة: «الفَضْلُ يَعودُ لابْتِسام.»

تَساءَلتِ الأُمُّ وقَدْ ظَهَرَ في صَوْتِها، لأَوَّلِ مَرَّةٍ، نَغْمَةٌ مِنَ التَّقْديرِ لَمْ تَعْتَدِ ابْتِسام سَماعَها: «هِيَ الَّتي ساعَدَتْكِ عَلى الوُقوفِ والمَشْيِ؟»

قالَتِ الجَدَّةُ وقَدْ غَمَرَ وَجْهَها ابْتِسامَتُها البَشوشُ: «بَلْ ساعَدَتْني عَلى الخُروجِ مِنَ التَّخَبُّطِ والظَّلامِ الَّذي سَجَنَني في هَذا المَرَضِ!»

الْتَفَتَتِ الأُمُّ إلى ابْنَتِها ابْتِسام وسَأَلَتْ، غَيْرَ قادِرَةٍ عَلى أَنْ تَفْهَمَ حَقيقَةَ المَوْقِفِ: «ما هِيَ الحِكايَةُ بِالضَّبْطِ، يا ابْتِسام؟»

قالَتِ الجَدَّةُ لِابْنَتِها نَجاة: «الحِكايَةُ عِنْدي أَنا.. هُناكَ حَديثٌ أُريدُكِ أَنْ تَسْمَعيهِ أَنْتِ يا نَجاةُ، وابْتِسام مَعَنا.»

سَأَلَتِ الأُمُّ في قَلَقٍ وحَيْرَةٍ: «ألا بُدَّ أَنْ تَسْمَعَهُ ابْتِسام مَعي؟»

قالَتِ الجَدَّةُ: «بَلى، لا بُدَّ أَنْ تَسمَعَهُ، لِكَيْ تكونَ حَريصَةً عَلى كِتْمانِهِ إلى الأَبَدِ.»

ازْدادَ قَلَقُ الأُمِّ وهِيَ تُحَوِّلُ بَصَرَها بَيْنَ ابْنَتِها ووالِدَتِها.

أَخيرًا سَأَلَتْ نَجاة أُمَّها شَريفَة، في نَفادِ صَبْرٍ: «ماذا تَقْصِدينَ بِكُلِّ هَذِهِ الأَلْغازِ؟»

وفُوجِئَتْ نَجاةُ بِأُمِّها شَريفَةَ تَقولُ: «ابْتِسام تَعْرِفُ الآنَ أَنَّ حَفْلَ كَتْبِ الكِتابِ الَّذي أَفْتى فيهِ المَأْذونُ بِأَنَّ الرَضْعَةَ الواحِدَةَ لا تُبَرِّرُ اعْتِبارَ العَروسِ أُخْتًا بِالرَّضاعِ لِلْعَريسِ، كانَ حَفْلَ عَقْدِ قِرانِكِ أَنْتِ، يا نَجاة، عَلى ابْنِ عَمِّكِ مُصْطَفى!»

ظَهَرَتْ عَلى الفَوْرِ نَظْرَةُ فَزَعٍ عَلى وَجْهِ الأُمِّ، فَلَمْ تَكُنْ تَتَصَوَّرُ أَنَّ مِثْلَ هَذا السِّرِّ يُمْكِنُ أَنْ يَتَسَرَّبَ إلى ابْنَتِها.

بَلْ لَمْ تَكُنْ تَتَخَيَّلُ أَنْ تُصْبِحَ ابْنَتُها الصُّغْرى جُزْءًا مِنْ ذَلِكَ السِّرِّ!

(١٧)

أَسْرَعَتِ الجَدَّةُ تَقولُ: «في عَصْرِ اليَوْمِ السّابِقِ عَلى إصابَتي بِالشَّلَلِ النِّصْفِيِّ، جاءَني مَحْروس ابْنُ الدّايَةِ (المُوَلِّدَةِ) بِأَنْفِهِ الَّذي مِثْلُ خُرْطومِ الفيلِ، يَطْلُبُ مُقابَلَتي عَلى انْفِرادٍ لأَمْرٍ هامٍّ، ولَمْ أَكُنْ قَدْ رَأَيْتُهُ مُنْذُ سَنواتٍ.

«قالَ لي: «عِنْدي سِرٌّ لا أَسْتَطيعُ كِتْمانَهُ بَعْدَ اليَوْمِ، وإلا كُنْتُ مُشْتَرِكًا في إثْمٍ كَبيرٍ لَنْ يَغْفِرَهُ اللهُ (عَزَّ وجَلَّ).» ومَعَ أَنَّني كُنْتُ لا أَثِقُ كَثيرًا في كَلامِهِ، فَقَدْ أَثارَتْ كَلِماتُهُ حُبَّ اسْتِطْلاعي، بَلْ أَثارَتْ فَزَعي في نَفْسِ الوَقْتِ.

«أَضافَ مَحْروس قائِلاً: «والِدَتي أَخْبَرَتْني مُنْذُ أَيّامٍ، أَنَّها تُريدُ الذَّهابَ إلى الحَجِّ، لَعَلَّ اللهَ يَغْفِرُ لَها إثْمًا كَبيرًا ارْتَكَبَتْهُ.» وانْتَظَرْتُ أَنْ يُكْمِلَ حَديثَهُ الغامِضَ، فَقالَ: «تَقولُ إنَّها كَتَمَتْ عَنْكُمْ، يَوْمَ عَقْدِ قِرانِ ابْنَتِكِ

نَجاة عَلى ابْنِ عَمِّها مُصْطَفى، أَنَّها شاهَدَتْ والِدَةَ مُصْطَفى تُرضِعُ ابْنَتَكِ نَجاة ثَلاثَ رَضَعاتٍ مُشبِعاتٍ، وكانَ ذَلِكَ يَوْمَ تَرَكْتِ ابْنَتَكِ الرَّضيعَةَ في بَيْتِ عَمِّها وسافَرْتِ إِلى المُسْتَشْفى لِفَتْحِ وتَنْظيفِ خُراجٍ أَصابَكِ في ظَهْرِكِ.»

«قُلْتُ لَهُ وقَدْ أَصابَتْني رَجْفَةٌ لِهَوْلِ ما قالَ: «لَكِنَّ كُلَّ الشُّهودِ، يَوْمَ عَقْدِ القِرانِ، اتَّفَقوا عَلى أَنَّ الرَّضاعَةَ لَمْ تَحْدُثْ إلا مَرَّةً واحِدَةً!»

«قالَ مَحْروس في خُبْثٍ لَمْ يُفْلِحْ في إِخْفائِهِ، كَأَنَّهُ يَتَلَذَّذُ بِتَعْذيبي: «هَذا ما شاهَدَهُ الشُّهودُ، أَمّا والِدَتي فَكانَتْ تُلازِمُ والِدَةَ مُصْطَفى في ذَلِكَ اليَوْمِ لِمُساعَدَتِها في الاهْتِمامِ بِالأَطْفالِ، وهِيَ تَعْرِفُ الحَقيقَةَ أَفْضَلَ مِنَ الجَميعِ، لَكِنَّها سَكَتَتْ يَوْمَ عَقْدِ القِرانِ لِكَيْ لا تُفسِدَ المُناسَبَةَ، وحَتّى لا تُثيرَ حَفيظَةَ أَهْلِ البَلَدِ ضِدَّها، عِنْدَما يَتَأَكَّدونَ أَنَّ نَجاة أُخْتٌ بِالرَّضاعِ لِمُصْطَفى مُنْذُ أَنْ رَضَعَتْ مِنْ أُمِّهِ تِلْكَ الرَّضَعاتِ الثَّلاث.»

وأَكْمَلَت الجَدَّةُ حِكايَتَها، فَقالَتْ: «شَعَرْتُ بِأَنَّ ساقَيَّ تَخْذُلانِني، فارْتَمَيْتُ عَلى مَقْعَدٍ وَجَدْتُهُ بِجِواري وأَنا أَسْأَلُهُ: «إذا كانَتْ والِدَتُكَ صادِقَةً، فَلِماذا سَكَتَتْ عِشْرينَ عامًا إلى أَنْ أَصبَحَ عِنْدَ نَجاة ومُصْطَفى أَرْبَعَةُ أَبْناءٍ؟»

«تَجاهَلَ الإجابَةَ عَنْ سُؤالي وقالَ في اسْتِهْتارٍ: «لَقَدْ قُمْتُ بِالواجِبِ، وإِثْمُ اسْتِمرارِ هَذا الزَّواجِ الحَرامِ تَتَحَمَّلينَهُ أَنْتِ!»

«ولَمْ يَنْتَظِرْ لأَسْأَلَهُ أَسْئِلَةً أُخْرى، هَذا الشَّيْطانُ الفَظيعُ، بَلْ أَسْرَعَ يُغادِرُ بَيْتي.

«شَعَرْتُ بِالدُّنْيا تُغَيِّمُ أَمامَ عَيْنَيَّ، وبِأَنَّ النَّهارَ تَحَوَّلَ إلى ظَلامٍ.

«هَلْ كانَ زَواجُكِ، يا ابْنَتي مِنِ ابْنِ عَمِّكِ مُصْطَفى، حَرامًا؟

«وفَقَدْتُ الوَعْيَ. وفي الصَّباحِ اكْتَشَفوا الشَّلَلَ الَّذي

أصابَ جانِبي الأَيْسَرَ.»

(١٨)

كانَتْ والِدَتي قَدِ انْهارَتْ لمّا سَمِعَتْ، فَجَلَسَتْ شاحِبَةً لا تَنْطِقُ. لَكِنَّ ابْتِسامَةَ جَدَّتي شَريفَة كانَتْ طَوْقَ النَّجاةِ لِوالِدَتي.

نَظَرَتْ جَدَّتي ضاحِكَةً إلى والِدَتي، وقالَتْ: «لِماذا لا تَنْتَظِرينَ حَتّى تَسْمَعي بَقِيَّةَ الحِكايَةِ؟ عَلَيْكِ أَنْ تَعْرِفي أَنَّ لَدَيْكِ ابْنَةً اسْمُها ابْتِسام، عِنْدَها مِنَ المَوْهِبَةِ والذَّكاءِ ما لَنْ تَجِديهِ في عَشَرَةِ رِجالٍ!»

وتَنَبَّهَتْ حَواسُّ أُمّي وقَدْ مَلأَني الفَخْرُ.

واصَلَتْ جَدَّتي حَديثَها المُتَفائِلَ.. قائِلَةً: «ابْنَتُكِ ابْتِسام تَذَكَّرَتْ حِوارًا سَمِعَتْهُ مُصادَفَةً مُنْذُ سَنَةٍ في بَيْتِ عَمِّها إسْماعيلَ، وسَجَّلَتْهُ كِتابَةً، فَكَشَفَتْ سِرَّ ذَلِكَ الحَديثِ الَّذي كادَ مَحْروس يَقْتُلُني بِهِ.»

وتَمَهَّلَتْ قَليلاً قَبْلَ أَنْ تَقولَ في تَأْكيد: «كانَ كُلُّ هَذا خُدْعَةً حَتّى أُضْطَرَّ إلى بَيْعِ أَرْضي إلى إسْماعيل، وأُغادِرَ القَرْيَةَ تَفادِيًا لِلْفَضيحَةِ.»

ثُمَّ أَضافَتْ: «هُوَ أَخو زَوْجِك، لَكِنَّ طَمَعَهُ في الاسْتيلاءِ على الأَرْضِ يُعْمي قَلْبَهُ وعَيْنَيْهِ.»

ثُمَ مَدَّتْ جَدَّتي ذِراعَها السَّليمَةَ تَدْعونا إلى مُساعَدَتِها عَلى الوُقوفِ.

لَكِنَّ الغَريبَ أَنَّها هِيَ الَّتي اسْتَنَدَتْ عَلى ذِراعِ والِدَتي ووَقَفَتْ وَحْدَها، ثُمَّ خَطَتْ خُطْوَةً، وبَعْدَها خُطْوَةً أُخْرى.

عِنْدَئِذٍ الْتَفَتَتْ ضاحِكَةً إلى والِدَتي وهِيَ تَقولُ: «وسَأَعودُ لأَعيشَ في قَرْيَتِنا!»

فَأَضَفْتُ قائِلَةً في حَماسٍ: «وأَزورُكِ كُلَّ صَيْف، يا جَدَّتي، أَسْتَمِعُ إلى حِكاياتِك!»

وفي حَماسٍ مُشابِهٍ قالَتْ لي الجَدَّةُ شَريفَة: «بَلْ

جاءَ دَوري لأَسْتَمِعَ أَنا إلى ما تَكْتُبينَ أَنْتِ، يا ابْتِسام، مِنْ قِصَصٍ ورِواياتٍ.»



مَعْركة طبيب

(١)

ارْتَفَعَ نُباحُ الكَلْبِ عالِيًا حادًّا مُتَواصِلاً.. لَمْ يَكُنْ نُباحَهُ المُتَقَطِّعَ المُعْتادَ، فَرَفَعْتُ رَأْسي مِنْ فَوْقِ وِسادَةِ سَريري الَّذي أَرْقُدُ فَوْقَهُ مَريضًا بِمُسْتَشْفى الوَحْدَةِ الصِّحِّيَّةِ بِقَرْيَةِ «العاطِف» بِمُحافَظَةِ الجيزَةِ، فَأَصْبَحَتْ عَيْناي في مُسْتَوى النّافِذَةِ.. لَمْ أَرَ شَيْئًا.. كانَتِ اللَّيْلَةُ بِغَيْرِ قَمَرٍ والظَّلامُ حالِكًا شَديدَ السَّوادِ، كَما هُوَ دائِمًا في آخِرِ يَوْمٍ مِنْ أَيّامِ الشَّهْرِ العَرَبِيِّ.

صِحْتُ بِهِ: «اُسْكُتْ، يا رَعْد!»

لَكِنَّ «رَعْد» ازْدادَ هِياجًا حَتّى تَصَوَّرْتُ أَنَّهُ يُحاوِلُ قَطْعَ السِّلْسِلَةِ الَّتي رَبَطَهُ بِها الدُّكْتورُ ماجِد إِلى قُضْبانِ حَديدِ بابِ سورِ الوَحْدَةِ.

قُلْتُ لِنَفْسي: «هَذا كَلْبٌ لا أَمانَ لَهُ.. إِنَّهُ يَعَضُّ

اليَدَ الَّتي تُطْعِمُهُ، وَلا أَمَلَ في إِسْكاتِهِ.»

(٢)

وعَلى غَيْرِ تَوَقُّعٍ، سَمِعْتُ صَليلَ السِّلْسِلَةِ الَّتي تُغْلِقُ بابَ الوَحْدَةِ.

صِحْتُ: «يا عَمّ حامِد!»

جاءَني صَوْتُ حامِد عامِلِ المُسْتَشْفى الَّذي اعْتادَ أَنْ يَقْضِيَ اللَّيْلَ في فِناءِ الوَحْدَةِ نائِمًا تَحْتَ نافِذَةِ غُرْفَةِ المُسْتَشْفى، يقولُ لي: «نَمْ، يا صالِح.. هَذا مَريضٌ جاءَ بِهِ أَهْلُهُ.»

سَأَلْتُ نَفْسي: «لِماذا لَمْ يَأْخُذْ عَمُّ حامِد مَعَهُ المِصباحَ الَّذي نَتْرُكُهُ مُعَلَّقًا أَمامَ بابِ الغُرَفِ الَّتي يَسْكُنُها الدُّكْتورُ ماجِد وزَوْجَتُهُ سَوْسَن؟»

فَفي بَعْضِ اللَّيالي كانَ «المَغْصُ الكُلْوِيُّ» أَوْ «أَلَمُ المُصْرانِ الأَعْوَرِ» يَشْتَدُّ بِواحِدٍ مِنْ أَهْلِ القَرْيَةِ، فَيَحْمِلُهُ

أَهْلُهُ في مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ إلى الدُّكْتورِ في الوَحْدَةِ. عِنْدَئِذٍ يَصْحو حامِد ويَحْمِلُ المِصْباحَ بَعْدَ أَنْ يُطيلَ فَتيلَتَهُ لِيَشْتَدَّ ضَوْؤُهُ ويَخْرُجُ لاسْتِقْبالِ القادِمينَ.

لَكِنَّهُ اللَّيْلَةَ خَرَجَ في الظَّلامِ.

وبَعْدَ أَنْ فَتَحَ بابَ السّورِ سَمِعْتُ وَقْعَ خُطُواتِهِ وهُوَ يَنْطَلِقُ إلى الخَلاءِ، فَزادَتْ دَهْشَتي لأَنَّ أَهْلَ مَريضِ اللَّيْلِ يَكونونَ عادَةً مُلْتَصِقينَ بِقُضْبانِ حَديدِ البابِ.

وبَعْدَ لَحَظاتٍ سَمِعْتُ حامِد يُعاوِدُ الدُّخولَ مِنَ البابِ وهَوَ يَتَحَدَّثُ مَعَ رَجُلٍ آخَرَ.

(٣)

في نَشاطٍ كَأَنَّهُ كانَ في انْتِظارِ القادِمِ، اسْتَيْقَظَ الدُّكْتورُ ماجِد لِيَفْحَصَ المَريضَ «الَّذي لا تَسْمَحُ حالَتُهُ بِالانْتِظار حَتّى الصَّباح»، وهُوَ التَّعْبيرُ الَّذي اسْتَخْدَمَهُ حامِد.

اسْتَمَعَ الطَّبيبُ إلى شَكْوى المَريضِ، وفَحَصَهُ و«صَرَفَ»



لَهُ الدَّواءَ مِنَ صَيْدَلِيَّةِ المُسْتَشْفى، فالدُّكْتورُ ماجِد هُوَ الطَّبيبُ وهُوَ الصَّيْدَلِيُّ، بَلْ يَقومُ أَيْضًا بِكُلِّ أَعْمالِ مَكْتَبِ الصِّحَّةِ، مِثْلِ إِعْطاءِ التَّعليماتِ وقَيْدِ المَواليدِ والتَّصْريحِ بِدَفْنِ المَوْتى.

(٤)

في صَباحِ اليَوْمِ التّالي سَمِعْتُ الدُّكْتورَ «ماجِد» يَقولُ لِعَمِّ حامِد: «مَريضُ اللَّيْلِ لَمْ يَكُنْ بِهِ شَيْءٌ خَطيرٌ.. لِماذا أَقْلَقْتَني بِغَيْرِ سَبَبٍ؟»

ضَحِكَ حامِد ضِحْكَتَهُ الصَّفْراءَ، وقالَ في غُموضٍ: «إِنَّهُ مَريضٌ يَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ المَجيءُ في ضَوْءِ النَّهارِ!»

لَمْ يَكُنِ الدُّكْتورُ ماجِد يَعْرِفُ أَنَّ الجَبَلَ القَريبَ مِنَ الوَحْدَةِ يَخْتَفي في كُهوفِهِ عَدَدٌ مِنَ «المَطاريدِ»، لَيْسَ مِنَ الضَّروريِّ أَنْ يَكونوا قَد ارْتَكَبوا جَريمَةً، بَلْ يَكْفي أَنْ يَكونوا مَحَلَّ اتِّهامٍ وأَنَّ الشُّرْطَةَ تَبْحَثُ عَنْهُمْ.

قالَ الدُّكْتورُ ماجِد: «هَلْ عِنْدَكُم في البَلَدِ مَنْ يَتعذَّرُ عَلَيْهِ تَرْكُ عَمَلِهِ نَهارًا حَتّى إذا كانَ مَريضًا؟»

قالَ حامِد: «إنَّهُ يَسْكُنُ الجَبَلَ، وسُكّانُ الجَبَلِ لا يَنْزِلونَ نَهارًا!»

لَمْ يُصَدِّقِ الدُّكْتورُ ماجِد ما سَمِعَ، فَقالَ في دَهْشَةٍ: «تَقْصِدُ أَنَّهُ مِنَ المُطارَدينَ؟ كَيْفَ إذَنْ تَرَكَ الجَبَلَ ونَزَلَ وَحْدَهُ في ظَلامِ اللَّيْلِ؟»

قالَ حامِد: «لَمْ يَكُنْ وَحْدَهُ.»

قالَ الطَّبيبُ: «لَكِنَّني لَمْ أَرَ غَيْرَهُ.»

قالَ حامِد في تَأْكيدٍ: «كانَ يُرافِقُهُ ثَلاثَةٌ أَخْفاهُمُ الظَّلامُ خارِجَ سورِ الوَحْدَةِ، كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ مَعَهُ بُنْدُقِيَّةٌ.» ثُمَّ تَمَهَّلَ قَبْلَ أَنْ يُضيفَ: «أَوْ مِدْفَعٌ رَشّاشٌ!»

فوجِئَ الدُّكْتورُ ماجِد وظَهَرَتِ الحَيْرَةُ عَلى وَجْهِهِ، فَأَضافَ حامِد: «اطْمَئِنَّ، يا دُكْتور.. لَنْ يَجْرُؤَ أَحَدٌ

أنْ يُبْلِغَ عَنْكَ لِقِيامِكَ بِعِلاجِ أَحَدِ المَطْلوبِ القَبْضِ عَلَيْهِمْ!»

قالَ الدُّكْتورُ ماجِد: «مَعَ أَنَّ لي أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ هُنا، فَإِنَّني أَكْتَشِفُ كُلَّ يَوْمٍ دَليلًا عَلى أَنَّكَ لا تَزالُ تُديرُ هَذِهِ الوَحْدَةَ الصِّحِّيَّةَ بِمِزاجِكَ، يا حامِد! مِنَ المُؤَكَّدِ أَنَّكَ كُنْتَ تَعْرِفُ مُسَبَّقًا أَنَّهُمْ سَيَجيئونَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، فَلِماذا لَمْ تُنَبِّهْني مُبَكِّرًا؟»

قالَ حامِد يُريدُ إِنْهاءَ النِّقاشِ الَّذي تَحَوَّلَ بِطَريقَةٍ لَمْ تُعْجِبْهُ: «جَرى خَيْرٌ، يا دُكْتورُ. كُلُّ شَيْءٍ تَمَّ بِهُدوءٍ!»

وتَأَمَّلَ الدُّكْتورُ ماجِد مَلامِحَ وَجْهِ حامِد الماكِرَةَ، ثُمَّ تَحَوَّلَ عَنْهُ لِيَقْتَرِبَ مِنْ سَريري.

(٥)

مُنْذُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، عِنْدَما وَصَلَ الدُّكْتورُ ماجِد إِلى بَلْدَتِنا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، لَمْ يُصَدِّقْ أَحَدٌ أَنَّ طَبيبًا جاءَ لِيُقيمَ إِقامَةً دائِمَةً

فِي سَكَنِ الأَطِبّاءِ بِالوَحْدَةِ الصِّحِّيَّةِ.

ولَمْ يَكْتَفِ الدُّكْتورُ ماجِد بِالإقامَة وَحْدَهُ، بَلْ جاءَ بِزَوْجَتِهِ الصَّغيرةِ «سَوْسَن»، لِكَيْ لا يُضْطر إلى تَرْكِ الوَحْدَةِ والذَّهابِ إلى القاهِرَةِ لِزِيارَتِها بَيْنَ يَوْمٍ وآخَرَ.

بَقِيَّةُ الأَطِبّاءِ يَحْضُرونَ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثَ مَرّاتٍ كُلَّ أُسْبوعٍ، يَقْضونَ في كُلِّ مَرَّةٍ جُزْءًا مِنَ الصَّباحِ ثُمَّ لا نَراهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ.

تَوَقَّفَ الدُّكْتورُ ماجِد لَحْظَةً بِجِوارِ سَريري، فَقُلْتُ لَهُ: «عِنْدَما كانَتِ الوَحْدَةُ تَخْلو مِنَ الأَطِبّاءِ، لَمْ يَكُنِ النّاسُ يَجِدونَ أَمامَهُمْ إلا حامِد!»

ولَمْ يُعَلِّقِ الدُّكْتورُ ماجِد عَلى عِبارَتي، فَأَضَفْتُ: «بَعْضُ الفَلاحينَ يُنادونَهُ قائِلينَ: «يا عَمّ الدُّكْتور حامِد!»

ضَحِكَ الدُّكْتورُ ماجِد ضِحْكَتَهُ الهادِئَةَ وهُوَ يَقولُ في لَهْجَةٍ ساخِرَةٍ: «دُكْتورٌ أَيْضًا؟ لَمْ يَبْقَ إلا هَذا!»

وكانَ حامِد يَقِفُ غَيْرَ بَعيدٍ عَنّا، فَتَظاهَرَ بِأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ حِوارَنا، وابْتَعَد لِيُنَظِّمَ مَرْضى الصَّباحِ في صُفوفٍ طِبْقًا لأَوْلَوِيَّةِ وُصولِهِمْ، وأَحْيانًا «طِبْقًا لِمزاجِهِ!»

سَأَلْتُ الدُّكْتورَ «ماجِد»:

«مَتى أُغادِرُ المُسْتَشْفى، يا دُكْتور، وأَعودُ إلى أَهْلي؟ إِنَّني المَريضُ الوَحيدُ الذي يَبيتُ حالِيًّا في المُسْتَشْفى.»

ابْتَسَمَ الدُّكْتورُ ماجِد ابْتِسامَتَهُ الهادِئَةَ وهو يَمْسَحُ على رأسي وقالَ: «أَنْتَ تَحْتاجُ حُقْنَةً في الوَريدِ صَباحًا وأُخْرى مَساءً، والمَسافَةُ مِنْ بَيْتِكُمْ إلى هُنا تَسْتَغْرِقُ عَلى الأَقَلِّ ساعَةً مَشْيًا، ووالِدَتُكَ لا تَسْتَطيعُ أَنْ تَأْتِيَ وتَعودَ بِكَ مَرَّتَيْنِ كُلَّ يَوْمٍ. بَعْدَ شَهْرٍ نَأْخُذُ عَيِّنَةً مِنَ الدَّمِ فَنَعْرِفُ ما إذا كُنْتَ تَحْتاجُ بَعْدَ ذَلِكَ إلى مَزيدٍ مِنَ الحُقَنِ أَوْ لا.»

وكُنْتُ، أَنا، صالِح، الَّذي أَبْلُغُ مِنَ العُمْرِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً، أَعْرِفُ كُلَّ هَذا، لَكِنَّني أَرْتاحُ إلى سَماعِهِ بَيْنَ وَقْتٍ وآخَرَ مِنْ فَمِ الدُّكْتورِ ماجِد.

(٦)

بَعْدَ ظُهْرِ نَفْسِ اليَوْمِ سَمِعْتُ حِوارًا غَريبًا بَيْنَ الدُّكْتورِ ماجِد وعَمِّ حامِد. كانَ حامِد يَقولُ: «يا دُكْتور، إذا كُنْتَ سَتَذْهَبُ صَباحَ غَدٍ لِصَيْدِ اليَمامِ مَعَ حَضْرَةِ العُمْدَةِ، يُمْكِنُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَعي مِفْتاحَ الصَّيْدَلِيَّةِ.»

قالَ الدُّكْتورُ ماجِد في ضَيْقٍ لَمْ يُخْفِهِ: «هَلْ سنَعَودُ إلى الحَديثِ في هَذا المَوْضوعِ مَرَّةً أُخْرى؟ عِنْدَما تَسَلَّمْتُ عَمَلي هُنا اشْتَرَيْتُ الأَدْوِيَةَ النّاقِصَةَ مِنْ عُهْدَةِ الصَّيْدَلِيَّةِ بِأَكْثَرَ مِنْ خَمْسِمِائَةِ جُنَيْهٍ، وأنا عَلى غَيْرِ اسْتِعْدادٍ أَنْ أُضْطَرَّ إلى دَفْعِ مِثْلِ هَذا المَبْلَغِ مَرَّةً ثانِيَةً!»

قالَ حامِد في لَهْجَةٍ حاوَلَ أَنْ يَجْعَلَها لَهْجَةَ عِتابٍ، لَكِنَّها عَبَّرَتْ عَنْ مَدى ما يَشْعُرُ بِهِ مِنْ سُخْطٍ: «أَنْتَ لا تَثِقُ بي، يا دُكْتور!»

قالَ الدُّكْتورُ ماجِد في حَسْمٍ: «أَنا واثِقٌ أَنَّ عُهْدَةَ الأَدْوِيَةِ كانَتْ ناقِصَةً نَقْصًا شَديدًا، لِذَلِكَ مِنَ الأَفْضَلِ أَنْ

يَظَلَّ مِفْتاحُ الصَّيْدَلِيَّةِ مَعي.»

وهَكَذا أَنْهى الدُّكْتورُ ماجِد حَديثَهُ مَعَ حامِد، لَكِنَّ «حامِد» كانَتْ لَهُ خُطَطٌ أُخْرى.

(٧)

لَعَلَّكُمْ تَظُنّونَ أَنَّ «حامِد» يَعْمَلُ أَيْضًا خَفيرًا لِلْوَحْدَةِ، لَكِنَّ الحَقيقَةَ أَنَّهُ غَريبٌ عَنْ قَرْيَتِنا، فَهُوَ مِنْ قَرْيَةٍ أُخْرى تَبْعُدُ عَنّا عَشَرَةَ أَوْ خَمْسَةَ عَشَرَ كيلو مِتْرًا، لِذَلِكَ لَمْ يَجِدْ مَكانًا يَبيتُ فيهِ أَفْضَلَ مِنَ الوَحْدَةِ الصِّحِّيَّةِ، فَلَيْسَ مِنَ السَّهْلِ عَلى رَجُلٍ غَريبٍ لَيْسَتْ مَعَهُ زَوْجَتُهُ أَنْ يَجِدَ مَسْكَنًا بَيْنَ بُيوتِ أَهْلِ القَرْيَةِ.

وقَبْلَ مَجيءِ الدُّكْتورِ ماجِد، كُنْتُ أَرى المَرْضى مِنْ أَهْلِ القَرْيَةِ يَدْخُلونَ الوَحْدَةَ في غِيابِ الأَطِبّاءِ، فَيَسْتَمِعُ حامِد إِلى شَكاواهُمْ ويُعْطيهِمْ ما يَخْتارُهُ هُوَ مِنْ أَدْوِيَةٍ يَأْخُذُها مِنَ الصَّيْدَلِيَّةِ، بَلْ يُعْطيهِمْ حُقَنًا في العَضَلِ

وتَحْتَ الجِلْدِ. لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مَعَ كُلِّ النّاسِ، بَلْ فَقَطْ لِمَنْ يَدْفَعُ لَهُ!

وكانَ طَبيعِيًّا أَنْ تَتَناقَص عُهْدَةُ الصَّيْدَلِيَّةِ بِسَبَبِ «صَرْفِ الأَدْوِيَةِ» بِغَيْرِ «رُوشِتّاتِ» الأَطِبّاءِ.

وقَبْلَ مَوْعِدِ مَجيءِ المُفَتِّشينَ لِجَرْدِ الصَّيْدَلِيَّةِ- ولَمْ نَعْرِفْ قَطُّ كَيْفَ كانَ حامِد يَعْرِفُ مُقَدَّمًا مَواعيدَ حُضورِهِمْ - يُضْطَرُّ الأَطِبّاءُ الَّذينَ اعْتادوا الغِيابَ، إلى كِتابَةِ وَصَفاتٍ طِبِّيَّةٍ صورِيَّةٍ بِتَواريخِ الأَيّامِ الَّتي لَمْ يَحْضُروا فيها، لإثْباتِ تَواجُدِهِمْ في أَيّامِ العَمَلِ، وأَيْضًا لِتَغْطِيَةِ العَجْزِ في الأَدْوِيَةِ.

وهَكَذا كانَ حامِد يَفوزُ بِرِبْحِ تِجارَتِهِ في صِحَّةِ النّاسِ وفي أَدْوِيَةِ المُسْتَشْفى، بِغَيْرِ خَوْفٍ مِنِ افْتِضاحِ أَمْرِهِ!

فَلَمّا قَرَّرَ الدُّكْتورُ ماجِد أَنْ يُقيمَ بِصِفَةٍ دائِمَةٍ في الغُرَفِ المُخَصَّصَةِ لِلطَّبيبِ وأُسْرَتِهِ بِالوَحْدَةِ المُجَمَّعَةِ، فَلا يَتْرُكُ قَرْيَتَنا لِزِيارَةِ والِدِهِ في القاهِرَةِ إلا مَرَّةً كُلَّ

خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا، انْقَطَعَت «الأَرْزاقُ الخَفِيَّةُ» الَّتي كانَتْ تَنْهالُ عَلى «عَمِّ الدُّكْتور حامِد»!

(٨)

في ذَلِكَ المَساءِ، جاءَ «نَبيل» ضابِطُ النُّقْطَةِ مَعَ زَوْجَتِهِ لِزِيارَةِ الدُّكْتورِ ماجِد.

جَلَسوا عَلى مَقاعِدَ في فِناءِ الوَحْدَةِ الصِّحِّيَّةِ قُرْبَ نافِذَةِ غُرْفَةِ المُسْتَشْفى الَّتي بِها سَريري، تُحيطُ بِهِمْ مَباني المَدْرَسَةِ الابْتِدائِيَّةِ ومَكْتَبُ المُشْرِفِ الزِّراعِيِّ.

وانْهَمَكَتِ السَّيِّدَةُ سَوْسَن وزَوْجَةُ ضابِط الشُّرْطَةِ، تَتَسَلَّيانِ بِشَيِّ «كِيزانِ الذُّرَةِ» عَلى نارِ فَحْمٍ هادِئَةٍ، في حينِ اسْتَغْرَقَ الرَّجُلانِ في الحَديثِ.

قالَ الضّابِطُ نَبيل: «أَخيرًا وَجَدْتُ مَنْ أَقْضي مَعَهُ بَعْضَ الأُمْسِيّاتِ الطَّويلَةِ هُنا. عَمَلي كَضابِطِ شُرْطَةٍ يَضْطَرُّني إلى أَنْ أَبيتَ يَوْمِيًّا في مَسْكَنِ الضُّبّاطِ فَوْقَ مَبْنى

النُّقْطَةِ، لَكِنْ ما الَّذي يَضْطَرُّكَ أَنْتَ، يا دُكْتورُ ماجِد، إِلى أَنْ تعيشَ هُنا مَعَ زَوْجَتِكَ؟ الجَرائِمُ تَحْدُثُ عادَةً مُسْتَتِرَةً بِالظَّلامِ، أَمّا المَرْضى فَطَريقُهُمْ أَسْهَلُ في ضَوءِ النَّهارِ!»

قالَ الدُّكْتورُ ماجِد: «كانَتْ تُلِحُّ عَلَيَّ دائِمًا فِكْرَةُ أَنْ أُصْبِحَ طَبيبًا في الأَرْيافِ لأَتَعَرَّفَ عَلى أَحْوالِ الفَلاحينَ.. إِنَّهُمْ أَساسُ حَضارَةِ مِصْرَ خِلالَ خَمْسَةِ آلافِ سَنَةٍ.»

ثُمَّ تَمَهَّلَ قَبْلَ أَنْ يُضيفَ: «والِدي عَميدُ كُلِّيَّةِ التَّرْبِيَةِ بِالقاهِرَةِ، وهُوَ أُسْتاذٌ في عِلْمِ الاجْتِماعِ، وكَثيرًا ما ذَهَبَ إِلى قُرى الرّيفِ لِيَقومَ بِدِراساتٍ حَوْلَ عاداتِ الفَلاحينَ وأَساليبِ حَياتِهِمْ.. لَمْ يَكُنِ الحَديثُ يَنْقَطِعُ في بَيْتِنا مُنْذُ كُنْتُ طِفْلاً صَغيرًا عَنْ أَحْوالِ أَهْلِ الرّيفِ. كُنْتُ أَسْتَمِعُ إِلى والِدي يُؤَكِّدُ أَنَّ الرّيفَ لَنْ يَتَغَيَّرَ وأَنَّ أَحْوالَ أَهْلِ القُرى لَنْ تَتَقَدَّمَ إِلا إِذا تَحَمَّسَ المُتَعَلِّمونَ وأَصْحابُ المِهَنِ لِلْعَيْشِ مَعَ الفَلاحينَ.»

ضَحِكَ الضّابِطُ نَبيل وهُوَ يَقولُ: «أَنْتَ أَوَّلُ طَبيبٍ

أُقابِلُهُ يُطَبِّقُ عَلى أَرْضِ الواقِعِ ما نَقْرَأُ عَنْهُ في الكُتُبِ!»

شارَكَهُ الدُّكْتورُ ماجِد الضَّحِكَ وهُوَ يَقولُ: «رِجالُ الجَيْشِ والشُّرْطَةِ.. كُلُّهُمْ يَتَواجَدونَ بِصِفَةٍ دائِمَةٍ في أَماكِنِ عَمَلِهِمْ وحيثُ تُلْزِمُهُمْ واجِباتُهُمْ أَنْ يُقيموا.. المُهَنْدِسونَ والعُمّالُ في المَناجِم وَسَطَ الجِبالِ، أَوْ حَوْلَ آبارِ البِتْرولِ في الصَّحارَى.. سائِقو القِطاراتِ.. خُفَراءُ اللَّيْلِ.. بَلْ مُعْظَمُ أَصْحابِ المِهَنِ الحُرَّةِ.. مِئاتٌ وآلافٌ يَلْتَزِمون بِالعَمَلِ في أَماكِنِ عَمَلِهِمْ مَهْما كانَتِ الحَياةُ في تِلْكَ الأَماكِنِ قاسِيَةً، فَلِماذا لا يَحْرِصُ طَبيبُ الرّيفِ عَلى أَنْ يَعيشَ وَسَطَ مَرْضاهُ الَّذينَ يَحْتاجون إِلَيْهِ في النَّهارِ أَوِ اللَّيْلِ؟»

(٩)

أَمّا أَنا «صالِح»، الَّذي اضطرني مرضي إلى أَنْ أَرْقُدَ فَوْقَ سَريرٍ بِمُسْتَشْفى لَمْ يَكُنْ بِهِ إِلا أَرْبَعَةُ أَسِرَّةٍ، فَقَدْ

كُنْتُ أَهَمَّ شاهِدٍ عَلى هَذا الاهْتِمامِ الَّذي مَلأَ قَلْبَ الدُّكْتورِ ماجِد بِأَهْلِ البَلَدِ. لَمْ أَسْمَعْهُ مَرَّةً يَرْفُضُ الذَّهابَ إلى بَيْتِ مَريضٍ تَعَذَّرَ عَلَيْهِ المَجيءُ إلى المُسْتَشْفى. أَمّا في اللَّيْلِ، فَكانَ يَطْلُبُ مِنْ أَهْلِ المَريضِ أَنْ يُحْضِروهُ إلى الوَحْدَةِ.. أَظُنُّ أَنَّ الَّذينَ نَشَأوا في المُدُنِ لا يُحِبّونَ كَثيرًا اللَّيْلَ في دُروبِ القُرى!

وكانَ أَهْلُ البَلَدِ يُحاوِلونَ جَميعًا التَّعْبيرَ لَهُ عَنْ شُكْرِهِمْ وتَقْديرِهِمْ.. كانوا يَتَمَسَّكونَ بِأَنْ يَكونَ هُوَ وزَوْجَتُهُ ضُيوفَ الشَّرَفِ في الأَفْراحِ وحَفَلاتِ الزِّفافِ الخاصَّةِ بِهِمْ، ويُرْسِلونَ إِلَيْهِ بَيْنَ وَقْتٍ وآخَرَ قُفَّةً مَلآنَةً بِأَنْواعِ البَلَحِ المُمْتازِ الَّذي يُنْتِجُهُ نَخيلُ قَرْيَتِنا، أَوْ يُهْدونَ إِلَيْهِ بَعْضَ «الفَطيرِ المُشَلْتَتِ» الغارِقِ في السَّمْنِ الَّذي لا تَنْسى السَّيِّدَةُ سَوْسَن أَنْ تُشْرِكَني مَعَهُمْ فيهِ.

في البِدايَةِ كانَ الدُّكْتورُ ماجِد يَرْفُضُ قَبولَ مِثْلِ هَذِهِ الهَدايا، لَكِنَّهُ أَدْرَكَ بَعْدَ أَسابيعَ أَنَّ أَهْلَ البَلَدِ يَعْتَبِرونَ

رَفْضَهُ نَوْعًا مِنَ الإهانَةِ لَهُمْ أَوِ اسْتِعْلاءً عَلَيْهِمْ. كَما عَرَفَ أَنَّ بَعْضَ أَغْنِياء البَلَدِ، نَتيجَةَ رَفْضِهِ مُجامَلاتِهِمْ لَهُ، بَدءوا يَمْتَنِعونَ عَنِ اللُّجوءِ إلَيْهِ، مُفَضِّلينَ الذَّهابَ إلى أَطِبّاءِ مَرْكَزِ العَيّاطِ، وهِيَ المَدينَةُ الَّتي تَبْعُدُ ثَلاثينَ دَقيقَةً بِالسَّيّارَةِ عَنْ قَرْيَتِنا.

أَمّا فُقَراءُ البَلَدِ، فَلَمْ يَشْعُروا يَوْمًا بِأَنَّهُمْ في حاجَةٍ إلى أَنْ يُقَدِّموا لَهُ شَيْئًا إلا كَلِماتِ الشُّكْرِ، مَعَ الدُّعاءِ لَهُ بِدَوامِ الصِّحَّةِ وراحَةِ البالِ هُوَ وزَوْجَتِهِ.

(١٠)

لَكِنَّ شَيْئًا غَريبًا حَدَثَ بَعْدَ يَوْمَيْنِ مِنْ رَفْضِ الدُّكْتورِ ماجِد تَسْليمَ مَفاتيحِ الصَّيْدَلِيَّةِ إلى حامِد عامِلِ المُسْتَشْفى.

لَقَدِ اخْتَفى حامِد تَمامًا مِنَ البَلَدِ ولَمْ يَظْهَرْ لَهُ أَثَرٌ، لا في الوَحْدَةِ الصِّحِّيَّةِ ولا في أَيِّ مَكانٍ بِالقَرْيَةِ. وفي اليَوْمِ التّالي لاخْتِفائِهِ، وبَعْدَ أَنْ فَقَدَ أَهْلُ البَلَدِ الأَمَلَ في العُثورِ

عَلَيْهِ، انْتَشَرَتْ إشاعَةٌ بِأَنَّهُ مَحْبوسٌ في نُقْطَةِ الشُّرْطَةِ. وبَعْدَ ثَلاثَةِ أَيّامٍ مِنَ الحَبْسِ، خَرَجَ حامِد مِنْ حَجْزِ النُّقْطَةِ شاحِبًا ذابِلاً.

سَأَلوهُ: «لِماذا حَبَسوكَ؟» والغَريبُ أَنَّهُ رَفَضَ الكَلامَ! أَمّا أَنا، الصَّبِيُّ صالِح، فَقَدْ صُدِمْتُ صَدْمَةً قاسِيَةً عِنْدَما عَرَفْتُ السَّبَبَ!

(١١)

كانَ الدُّكْتورُ ماجِد يَتَحَدَّثُ مَعَ زَوْجَتِهِ السَّيِّدَةِ سَوْسَن، وقَدِ امْتَلأَتْ لَهْجَتُهُما بِالاِسْتِنْكارِ والمَرارَةِ.

قالَ الدُّكْتورُ ماجِد: «هَلْ تَعْرِفينَ أَيْنَ اخْتَفَى حامِد هَذِهِ الأَيّامَ الثَّلاثَةَ؟»

قالَتِ السَّيِّدَةُ سَوْسَن: «هَلْ ذَهَبَ إلى مَدينَةِ الجيزَةِ أَوْ مَرْكَزِ العَيّاطِ يَطْلُبُ نَقْلَهُ مِنْ هُنا بَعْدَ أَنْ رَفَضْتَ أَنْ تُعْطِيَهُ مَفاتيحَ الصَّيْدَلِيَّةِ؟»

قالَ الدُّكْتورُ ماجِد: «بَلْ أَسْوَأُ مِنْ هَذا بِكَثيرٍ.. ذَهَبَ إلى نُقْطَةِ الشُّرْطَةِ وقَدَّمَ شَكْوى ضِدّي، طَلَبَ تَحْويلَها إلى النِّيابَةِ!»

صاحَتْ سَوْسَن: «شَكْوى ونِيابَةٌ؟ ضِدُّكَ أَنْتَ في الشُّرْطَةِ؟ وماذا قالَ فيها، إنْ شاءَ اللهُ؟»

قالَ الدُّكْتورُ ماجِد وفي لَهْجَتِهِ كَثيرٌ مِنَ الأَسَفِ: «قالَ إنَّني أَسْرِقُ أَدْوِيَةَ الصَّيْدَلِيَّةِ وأَبيعُها لِلْمَرْضى!»

صاحَتْ سَوْسَن وقَدِ امْتَلأَ صَوْتُها بِالغَضَبِ والاِسْتِنْكارِ: «يَتَّهِمُكَ بِذَلِكَ وأَنْتَ الَّذي طالَما عامَلْتَهُ بِسَخاءٍ؟ يَتَّهِمُكَ بِما اعْتادَ هُوَ أَنْ يَفْعَلَهُ؟ إِنَّهُ تَمامًا مِثْلُ رَعْد، هَذا الكَلْبُ الشَّرِسُ الَّذي حاوَلَ أَنْ يَعَضَّكَ وأَنْتَ تُقَدِّمُ لَهُ الطَّعامَ!»

قالَ ماجِد: «حاوَلَ أَنْ يَعَضَّني لأَنَّني رَبَطْتُهُ بِسِلْسِلَةٍ لِكَيْ أَكُفَّ أَذاهُ عَنِ المَرْضى الَّذين يَجيئونَ إلى الوَحْدَةِ.»

سَأَلَتْ سَوْسَن: «وماذا فَعَلوا في الشَّكْوى؟»

قالَ ماجِد: «الضّابِط نَبيل اسْتَدْعاهُ إلى النُّقْطَةِ لأَخْذِ أَقْوالِهِ بِشَأْنِها، ثُمَّ أَمَرَ بِوَضْعِهِ في الحَجْزِ لِتَأْديبِهِ بِسَبَبِ أَكاذيبِهِ الَّتي لَفَّقَها ضِدّي.»

وتَمَهَّلَ، ثُمَّ أَضافَ: «الحَمْدُ لِلهِ أَنَّ الشَّكْوى وَقَعَتْ بَيْنَ يَدَيْ ضابِطِ النُّقْطَةِ الَّذي يَعْرِفُ جَيِّدًا كُلَّ شَيْءٍ عَنّي.»

سَأَلَتْ سَوْسَن: «ومَنِ الَّذي كَتَبَ لَهُ تِلْكَ الشَّكْوى؟ حامِد لا يَعْرِفُ القِراءَةَ والكِتابَةَ!»

قالَ ماجِد: «أَعْتَقِدُ أَنَّهُ أَمْلاها عَلى كاتِبٍ عُمومِيٍّ مِمَّنْ يَجْلِسونَ أَمامَ بابِ مَحْكَمَةِ العَيّاطِ، وقَدْ أَضافَ إِلَيْها الكاتِبُ مِنْ عِنْدِهِ بَعْضَ الجَرائِمِ والجِناياتِ مَعَ كَثيرٍ مِنَ التَّعْبيراتِ القانونِيَّةِ! مِنَ الواضِحِ أَنَّ حامِد دَفَعَ لَهُ بِسَخاءٍ!»

(١٢)

لَمْ يَصِلْ إلى سَمْعي ما يَدُلُّ عَلى أَنَّ الدُّكْتورَ ماجِد قَدْ

عاتَبَ حامِد عَلى ما فَعَلَ، لَكِنَّ الحَديثَ بَيْنَهُما انْقَطَعَ تَمامًا بَعْدَ ذَلِكَ.

وكُنْتُ أَنا الَّذي قُلْتُ لِحامِد: «الدُّكْتورُ ماجِد يَخْدُمُ كُلَّ النّاسِ يا عَمّ حامِد... لِماذا تُحاوِلُ مُضايَقَتَهُ لِيَتْرُكَ المُسْتَشْفى؟ مِنَ السَّهْلِ أَنْ يَتْرُكَنا بِغَيْرِ رَجْعَةٍ.»

نَظَرَ إِلَيَّ حامِد نَظْرَةً غَريبَةً، ولَمْ يُجِبْ.

عُدْتُ أَقولُ: «هَلْ أَساءَ إِلَيْكَ يا عَمّ حامِد؟ الدُّكْتورُ ماجِد لا يُسيءُ إِلى أَحَدٍ!»

صاحَ حامِد يَنْهَرُني: «لا تَتَدَخَّلْ في أُمورٍ أَكْبَرَ مِنْكَ!»

كانَتْ لَهْجَتُهُ فَظَّةً جافَّةً، فَسَكَتُّ. ومَعَ ذَلِكَ فَقَدْ أَضافَ بَعْدَ قَليلٍ: «هُوَ يُريدُ أَنْ يَخْرِبَ بَيْتي!»

قُلْتُ: «هَلْ تُريدُهُ أَنْ يَدْفَعَ كُلَّ شَهْرٍ خَمْسَمِائَةَ جُنَيْهٍ ثَمَنًا لأَدْوِيَةٍ ناقِصَةٍ؟»

صاحَ حامِد مُنْفَعِلاً: «وهَلْ أَخَذْتُ هَذِهِ الأَدْوِيَةَ لِنَفْسي؟ لَقَدْ عالَجْتُ بِها النّاسَ! هُوَ لا يَرْحَمُ ولا يُريدُ رَحْمَةَ رَبِّنا تَنْزِلُ!»

قُلْتُ: «الدُّكْتورُ ماجِد تَرَكَ بَيْتَهُ المُريحَ في القاهِرَةِ لِيَعيشَ مَعَ زَوْجَتِهِ في وَسَطِنا.. نَحْنُ الَّذينَ نَحْتاجُ إِلَيْهِ! لِماذا تَسْعى إلى أَنْ تُؤْذِيَهُ؟»

صاحَ حامِد وقَدِ اشْتَدَّ غَيْظُهُ وغَضَبُهُ: «هُوَ الَّذي يَسْعى إلى أَذِيَّتي! لَقَدْ نَجَحْنا دائِمًا في تَسْوِيَةِ أَيِّ عَجْزٍ يَظْهَرُ في عُهْدَةِ الصَّيْدَلِيَّةِ.. النّاسُ راضونَ وأَنا لا آخُذُ إلا القَليلَ مُقابِلَ خِدْماتي.. لِماذا يُحارِبُني ويَقْطَعُ رِزْقي؟»

ولَمْ يَنْتَظِرْ لِيَسْمَعَ مِنّي كَلِمَةً أُخْرى حَوْلَ الرِّزْقِ الحَلالِ والرِّزْقِ الحَرامِ، وانْدَفَعَ خارِجًا مِنْ غُرْفَةِ المُسْتَشْفى، بَلْ خَرَجَ مِنْ مَبْنى الوَحْدَةِ الصِّحِّيَّةِ كُلِّها.

كانَ مِنَ الواضِحِ أَنَّ حامِد قَدِ اعْتَبَرَ نَفْسَهُ في «مَعْرَكَةٍ».. مَعْرَكَةِ «أَكْلِ عَيْشٍ»!

(١٣)

بَعْدَ أَيّام جاءَتْ لَجْنَةٌ أَرْسَلَتْها الإدارَةُ الطِّبِّيَّةُ بِمَرْكَزِ العَيّاطِ، مُكَوَّنَةٌ مِنْ ثَلاثَةِ مُفَتِّشينَ، أَحَدُهُمْ لِجَرْدِ ومُراجَعَةِ الأَدْوِيَةِ الَّتي في الصَّيْدَلِيَّةِ، والثّاني لِمُراجَعَةِ دَفاتِرِ التَّطْعيماتِ وسِجِلاتِ إِثْباتِ المَواليدِ والوَفَياتِ، والثّالِثُ، وهُوَ رَئيسُ اللَّجْنَةِ، لإجْراءِ تَحْقيقاتٍ حَوْلَ كُلِّ شَيءٍ يَتَعَلَّقُ بِعَمَلِ واخْتِصاصاتِ الطَّبيبِ ماجِد.

وعَرَفَتِ البَلَدُ كُلُّها أَنَّ حامِد، بَعْدَ أَنْ عوقِبَ بِقَسْوَةٍ عَلى شَكْواهُ إلى الشُّرْطَةِ والنِّيابَةِ، قَدَّمَ شَكْوى أُخْرى إلى إدارَةِ التَّحْقيقاتِ بِالإدارَةِ الطِّبِّيَّةِ في مَدينَةِ العَيّاطِ، يَتَّهِمُ فيها الدُّكْتورَ ماجِد بِكُلِّ التُّهَم الَّتي يُمْكِنُ أَنْ تُوَجَّهَ إلى طَبيبٍ يَعْمَلُ في الأَرْيافِ: أَنَّهُ يَتَغَيَّبُ عَنْ عَمَلِهِ أَسابيعَ كامِلَةً، وأَنَّهُ يُتاجِرُ لِحِسابِهِ الخاصِّ بِأَدْوِيَةِ الصَّيْدَلِيَّةِ، وأَنَّهُ يَتَأَخَّرُ أَيّامًا في إِثْباتِ المَواليدِ، ويُصَرِّحُ بِدَفْنِ المَوْتى بِغَيْرِ تَوْقيعِ الكَشْفِ الطِّبِّيِّ عَلَيْهِمْ، وأَنَّهُ يَأْخُذُ مُقابِلًا لِكُلِّ

حُقْنَةٍ يُعْطيها لأَيِّ مَريضٍ، وأَنَّهُ يَسْتَخْرِجُ شَهاداتٍ مَرَضِيَّةً غَيْرَ حَقيقِيَّةٍ تَسْمَحُ لِمَنْ يَعْمَلونَ في جِهاتٍ حُكومِيَّةٍ بِالحُصولِ عَلى إجازاتٍ غَيْرِ قانونِيَّةٍ!

لَكِنَّ الدَّهْشَةَ الحَقيقِيَّةَ كانَتْ لِلسُّرْعَةِ الَّتي تَمَّ بِها تَكوينُ تِلْكَ اللَّجْنَةِ وإِرْسالُها، فَمِثْلُ تِلْكَ الشَّكاوى يَسْتَغْرِقُ بَحْثُها عادَةً شُهورًا طَويلَةً قَبْلَ اتِّخاذِ أَيِّ إجْراءٍ بِشَأْنِها، فَما السِّرُّ في هَذا الاهْتِمامِ السَّريعِ والمُبالَغِ فيهِ بِشَكْوى يُقَدِّمُها عامِلٌ غَريبٌ عَنِ البَلَدِ، ضِدَّ أَفْضَلِ طَبيبٍ عَرَفَتْهُ القَرْيَةُ؟

ورَغْمَ تَكَتُّمِ اللَّجْنَةِ حَوْلَ أَسْبابِ حُضورِها، فَقَدِ انْتَشَرَتِ الإشاعاتُ حَوْلَها بِسُرْعَةٍ، فَأَرْسَلَ العُمْدَةُ يَدْعو أَعْضاءَها إلى تَناوُلِ الغَداءِ في بَيْتِهِ.

لَقَدْ عَرَفَ العُمْدَةُ أَنَّ حامِد نَفْسَهُ هُوَ الَّذي كانَ وَراءَ انْتِشارِ تِلْكَ الإشاعاتِ.

وأَرادَ العُمْدَةُ أَنْ يَكونَ لِقاؤُهُ بِأَعْضاءِ لَجْنَةِ التَّفْتيشِ في غَيْرِ حُضورِ الدُّكْتورِ ماجِد، لِكَيْ لا يَتَصَوَّروا أَنَّ وُجودَ

الدُّكْتورِ قَدْ أَحْرَجَ العُمْدَةَ وهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنْهُ مَعَهُمْ.

كَما وَجَّهَ العُمْدَةُ الدَّعْوَةَ إلى الضّابِطِ نَبيل ضابِطِ النُّقْطَةِ لِلْمُشارَكَةِ في الغَداءِ مَعَ اثْنَيْنِ مِنْ رُؤَساءِ أَكْبَرِ العائِلاتِ في البَلَدِ.

(١٤)

في مَساءِ ذَلِكَ اليَوْمِ جاءَ العُمْدَةُ والضّابِطُ نَبيل لِزِيارَةِ الدُّكْتورِ ماجِد. وكُنْتُ قَدْ لاحَظْتُ قَبْلَ حُضورِهِما، أَنَّ القَلَقَ الشَّديدَ قَدْ سَيْطَرَ عَلى السَّيِّدَةِ سَوْسَن، وأَنَّ الدُّكْتورَ ماجِد كانَ يُحاوِلُ أَنْ يُخَفِّفَ مِنْ قَلَقِها، لَكِنْ مِنَ الواضِحِ أَنَّهُ هُوَ أَيْضًا قَدْ أَحَسَّ بِأَنَّ هُناكَ شَيْئًا غَيْرَ عادِيٍّ وَراءَ مَجيءِ تِلْكَ اللَّجْنَةِ بِهَذِهِ السُّرْعَةِ.

جَلَسَ الثَّلاثَةُ كَما اعْتادوا في فِناءِ الوَحْدَةِ، وكانَ صَوْتُ حَديثِهِمْ يَصِلُ بِوُضوحٍ إلى سَمْعي وأَنا مُسْتَلْقٍ عَلى فِراشي في غُرْفَةِ المُسْتَشْفى.

قالَ العُمْدَةُ: «لَمْ أَشْعُرْ بِالارْتِياحِ لِطَرِيقَةِ رَئِيسِ اللَّجْنَةِ في الحَديثِ. لَمْ يَجِدوا أَيَّ نَقْصٍ في أَدْوِيَةِ الصَّيْدَلِيَّةِ، لَكِنَّهُ لَمْ يُوَضِّحْ رَأْيَهُ في مَوْضوعِ الادِّعاءِ بِأَنَّكَ تَتَغَيَّبُ عَنِ العَمَلِ، حَتّى بَعْدَ أَنْ أَكَّدْنا لَهُ جَميعًا أَنَّنا شُهودٌ على أَنَّكَ تُقيمُ هُنا وأَنَّكَ تَقْضي كُلَّ وَقْتِكَ مَعَنا. كَما أَجابَ إجاباتٍ غامِضَةً عِنْدَما ذَكَرْنا أَنَّ قَيْدَ المَواليدِ يَتِمُّ دائِمًا في نَفْسِ يَوْمِ الميلادِ. أَمّا عَنْ إعْطاءِ تَصاريحِ الدَّفْنِ بِغَيْرِ تَوْقيعِ الكَشْفِ عَلى المَوْتى، فَقَدْ أَخْبَرَنا أَنَّهُ سَأَلَ عامِلَ ماكينَةِ الرَّيِّ، الَّذي قالَ لَهُ إنَّكَ لَمْ تُوَقِّعِ الكَشْفَ عَلى والِدِهِ بَعْدَ وفاتِهِ.»

قالَ الدُّكْتورُ ماجِد: «كُنْتُ أَزورُهُ يَوْمِيًّا لأُشْرِفَ عَلى عِلاجِهِ، بَعْدَ أَنْ بَلَغَ السَّبْعينَ وأُصيبَ بِفَشَلٍ كُلْوِيٍّ حادٍّ، فَلِماذا أُعيدُ الكَشْفَ عَلَيْهِ وأنا أَعْرِفُ مُسْبَقًا سَبَبَ الوَفاةِ؟»

(١٥)

في تِلْكَ اللَّيْلَةِ، أَرْسَلَ العُمْدَةُ وثَلاثَةٌ مِنْ رُؤَساءِ

العائِلاتِ الكَبيرَةِ في القَرْيَةِ، بَرْقِيّاتٍ إلى مُديرِ الإداراتِ الطِّبِّيَّةِ، يُشيدونَ بِالجُهودِ الَّتي يَبْذُلُها الدُّكْتورُ ماجِد مَعَ أَهْلِ القَرْيَةِ، ويُؤَكِّدونَ أَنَّهُ يَحْرِصُ عَلى البَقاءِ في الوَحْدَةِ الصِّحِّيَّةِ بِصِفَةٍ دائِمَةٍ، وأَنَّ الشَّكاوى المُقَدَّمَةَ لا أَساسَ لَها مِنَ الصِّحَّةِ.

(١٦)

وعَلى الرَّغْمِ مِنْ هَذا، تَمَّ اسْتِدْعاءُ الدُّكْتورِ ماجِد بَعْدَ أَيّامٍ إلى إدارَةِ الشُّئونِ القانونِيَّةِ بِمَدينَةِ العَيّاطِ، لاسْتِجْوابِهِ وسُؤالِهِ حَوْلَ المُخالَفاتِ المَنْسوبَةِ إلَيْهِ، والَّتي وَرَدَتْ في تَقْريرِ التَّفْتيشِ.

كانَ مُفَتِّشُ التَّحْقيقاتِ شَخْصًا فَظًّا، عامَلَ الدُّكْتورَ ماجِد بِغَيْرِ الاحْتِرامِ الواجِبِ، بَل قالَ لَهُ بِوُضوحٍ: «لَنْ نَتْرُكَكَ تُفْلِتُ مِنْ أَقْسى عِقابٍ.. مُعْظَمُ أَطِبّاءِ الوَحَداتِ الصِّحِّيَّةِ يَتَهَرَّبونَ مِنْ أَداءِ واجِباتِهِمْ، ولا بُدَّ أَنْ نَجْعَلَ مِنْ



أَحَدِهِمْ عِبْرَةً لِغَيْرِهِ!»

قالَ الدُّكْتورُ ماجِد آسِفًا: «ولَمْ تَجِدوا مَنْ تَجْعَلوهُ عِبْرَةً إلا الوَحيدَ الَّذي رَضِيَ أَنْ يُقيمَ بِصِفَةٍ دائِمَةٍ في مَكانِ عَمَلِهِ؟ هَلْ هَذا هُوَ جَزاءُ الإِخْلاصِ في العَمَلِ؟»

أَجابَهُ مُفَتِّشُ التَّحْقيقاتِ في سُخْرِيَةٍ وبِنَفْسِ الفَظاظَةِ: «لا تَتَحَدَّثْ عَنِ الإِخْلاصِ، يا دُكْتورُ، فَلَيْسَ مِنَ المَعْقولِ لَوْ صَدَّقْناكَ في هَذا، أَنْ تَكونَ إِقامَتُكَ في الوَحْدَةِ، لِمَصْلَحَةِ النّاسِ.. مِنَ المُؤَكّدِ أَنَّ وَراءَ هَذا مَصالِحَ خاصَّةً كَثيرةً!»

ثُمَّ فاجَأَ الدُّكْتورَ ماجِد يَسْأَلُهُ مُتَحَدِّيًا: «أَخبِرْني، يا دُكْتور.. كَمْ تَأْخُذُ عِنْدَما تَذْهَبُ لِلْكَشْفِ عَلى أَحَدِ مَرْضى العائِلاتِ الكَبيرَةِ في البَلَدِ، هَؤُلاءِ الَّذينَ يَتَطَوَّعونَ لِلدِّفاعِ عَنْكَ بِحَرارَةٍ؟»

(١٧)

بَعْدَ أَنْ نَقَلَ الدُّكْتورُ ماجِد، في أَسَفٍ شَديدٍ، إلى

زَوْجَتِهِ سَوْسَن، كُلَّ ما دارَ في التَّحْقيقِ، قالَ في صَوْتٍ كُلُّهُ مَرارةٌ: «لَقَدْ قابَلْتُ مُوَظَّفًا صَغيرًا، كُنْتُ قَدْ تَعَرَّفْتُ عَلَيْهِ عِنْدَما ذَهَبْتُ لأَوَّلِ مَرَّةٍ مُنْذُ شُهورٍ إلى الإدارَةِ الطِّبِّيَّةِ لإنْهاءِ إجْراءاتِ تَسَلُّمي العَمَلَ هُنا، ووَصَفْتُ لَهُ عِنْدَئِذٍ دَواءً شَفاهُ مِنْ مَرَضٍ عانى مِنْهُ طَويلاً. لَقَدْ هَمَسَ في أُذُني أَنَّ مُفَتِّشَ التَّحْقيقاتِ الفَظَّ، هُوَ أَحَدُ أَقْرِباءِ حامِد، بَلْ إنَّهُ هُوَ الَّذي عَيَّنَهُ في وَحْدَتِنا الصِّحِّيَّةِ، مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَبْناءِ هَذِهِ القَرْيَةِ.»

(١٨)

ولمّا كانَ أَهْلُ قَرْيَةِ «العاطِفِ» قَدْ عَرَفوا أَنَّ حامِد العامِلَ بِالمُسْتَشْفى والوَحْدَةِ الصِّحِّيَّةِ، هو الَّذي أَرْسَلَ تِلْكَ الشَّكاوى الكَيْدِيَّةَ ضِدَّ الدُّكْتورِ ماجِد الطَّبيبِ الَّذي أَخْلَصَ لَهُمْ كُلَّ الإخْلاصِ، فَقَدِ انْهالَتِ الشَّكاوى عَلى الإدارَةِ الطِّبِّيَّةِ، تَذْكُرُ تَفاصيلَ تَصَرُّفاتِ حامِد، وكَيْفَ كانَ يَبْتَزُّ المَرْضى، ويَبيعُ لَهُمْ أَدْوِيَةَ الصَّيْدَلِيَّةِ قَبْلَ مَجيءِ

الدُّكْتورِ ماجِد، ويَفْرِضُ الإتاواتِ عَلى كُلِّ مَريضٍ. وتَضَمَّنَتْ كُلُّ شَكْوى أَسْماءَ الشُّهودِ وتَواريخَ الوَقائِعِ ومَكانَ حُدوثِها ومَبالِغَ الرِّشْوَةِ. ذَلِكَ أَنَّ حامِد هَذا، لأَنَّهُ كانَ غَريبًا عَنِ البَلَدِ، لَمْ تَمْنَعِ المُجامَلاتُ أَوْ «مُراعاةُ الخَواطِرِ» أَحَدًا مِنْ ذِكْرِ كُلِّ الحَقائِقِ.

(١٩)

لَكِنَّ كُلَّ هَذا لَمْ يَنْفَعْ! لَقَدْ فوجِئَ الدُّكْتورُ ماجِد بِخِطابٍ رَسْمِيٍّ تُخْطِرُهُ فيهِ إدارَةُ التَّحْقيقاتِ بِخَصْمِ مُرَتَّبِ شَهْرَيْنِ كامِلَيْنِ مِنْ راتِبِهِ «جَزاءً لَهُ عَلى ما نُسِبَ إِلَيْهِ مِنْ مُخالَفات!». وعِنْدَما ذَهَبَ الدُّكْتورُ ماجِد لِيَعْرِفَ أَسْبابَ ذَلِكَ الجَزاءِ، قالَ لَهُ مُفَتِّشُ التَّحْقيقاتِ بِنَفْسِ الفَظاظَةِ: «نَحْنُ عَلى ثِقَةٍ بِأَنَّهُ أَنْتَ الَّذي حَرَّضْتَ أَهْلَ البَلَدِ عَلى تَقْديمِ تِلْكَ الشَّكاوى ضِدَّ حامِد، مَعَ أَنَّكَ تَعْرِفُ أَنَّهُ قَريبي، وقَدِ اضْطَرَّتْنا تِلْكَ الشَّكاوى إِلى مُجازاتِهِ، لَكِنَّنا أَوْقَعْنا عَلَيْكَ جَزاءً لا يَقِلُّ عَمّا أَوْقَعْناهُ عَلَيْهِ.»

ثُمَّ أَضافَ في ابْتِسامَةٍ صَفْراءَ كُلُّها قَسْوَةٌ وخُبْثٌ: «والمَثَلُ يَقولُ: إذا اخْتَلَفَ اللِّصّانِ ظَهَرَ المَسْروقُ!»

(٢٠)

وجاءَ العُمْدَةُ، وضابِطُ النُّقْطَةِ، وكِبارُ عائِلاتِ البَلَدِ، يَعْتَذِرونَ لِلدُّكْتورِ ماجِد عَنْ هَذا الظُّلْمِ الفادِحِ الَّذي أَصابَهُ، كَأَنَّهُمْ هُمُ الَّذينَ أَصابوهُ بِهِ.

كانوا يَشْعُرونَ بِالخَجَلِ، بَلْ بِالعارِ، لِعَجْزِهِمْ عَنِ الوُقوفِ ضِدَّ هَذا الجُحودِ.

وقَدْ تَماسَكَ الدُّكْتورُ ماجِد، وبَدَأَ يَتَّصِلُ بِأَحَدِ كِبارِ المُحامينَ لِيَرْفَعَ دَعْوى أَمامَ المَحْكَمَةِ العُلْيا؛ مُطالِبًا بِإِلْغاءِ ذَلِكَ الجَزاءِ الظّالِمِ شَديدِ القَسْوَةِ.

أَمّا زَوْجَتُهُ السَّيِّدَةُ سَوْسَن، فَقَدْ أَصَرَّتْ عَلى مُغادَرَةِ القَرْيَةِ. قالَتْ لِزَوْجِها: «لَنْ أَبْقى يَوْمًا واحِدًا بَعْدَ الآن في هَذِهِ القَرْيَةِ.. لَقَدْ ضَحَّيْنا بِكُلِّ شَيْءٍ مُريحٍ في بَيْتِنا

بِالقاهِرَةِ، وجِئْتُ لأَعيشَ مَعَكَ هُنا حَتّى بَعْدَ أَنْ جاءَنا أَوَّلُ طِفْلٍ.. وفي النِّهايَةِ يَكونُ هَذا جَزاءَنا! لا .. لَنْ أَبْقى هُنا بَعْدَ الآنِ!»

قالَ لَها الدُّكْتورُ ماجِد: «أَنْتِ بِهَذا تُحَقِّقينَ لِلشَّرِّ أَهْدافَهُ.. كُلُّ مُخْلِصٍ في عَمَلِهِ سَيَجِدُ مَنْ يَقِفُ في طَريقِهِ، ولا بُدَّ مِنَ الصَّلابَةِ والمُقاوَمَةِ، عَلى الأَقَلِّ لأَجْلِ النّاسِ الَّذينَ وَضَعوا ثِقَتَهُمْ فِيَّ.»

لَكِنَّها أَصَرَّتْ، وتَرَكَتِ القَرْيَةَ مَعَ ابْنِهِما.

(٢١)

أَمّا الدُّكْتورُ ماجِد، فَقَدْ بَقِيَ!

سَمِعْتُهُ يُرَدِّدُ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ قائِلًا لِلضّابِطِ نَبيل أَوْ لِحَضْرَةِ العُمْدَةِ: «لا بُدَّ لِلْخَيْرِ أَنْ يَنْتَصِرَ.. إذا سَمَحْنا لِلشَّرِّ أَنْ يَهْزِمَنا بِهَذِهِ البَساطَةِ، فَمَعْنى هَذا أَنَّنا نَتْرُكُ لَهُ السّاحَةَ. لا.. المَعْرَكَةُ لَمْ تَنْتَهِ، ولَنْ أَسْتَسْلِمَ.»

والحَقيقَةُ أَنَّ الحَياةَ أَصْبَحَتْ أَصْعَبَ كَثيرًا بِالنِّسْبَةِ لِلدُّكْتورِ ماجِد، عِنْدَما لَمْ تَعُدْ زَوْجَتُهُ بِجوارِهِ، وبِسَبَبِ الوَقْتِ الَّذي أَصْبَحَ يَقْضيهِ في مَكاتِبِ المُحامينَ الَّذينَ يَتَوَلَّوْنَ قَضِيَّتَهُ، ولأَنَّهُ اضْطُرَّ أَنْ يَسْتَمِرَّ في العَمَلِ وبِجِوارِهِ ذَلِكَ الإِنْسانُ الفاسِدُ الَّذي اسْمُهُ «حامِد»!

(٢٢)

قُلْتُ لِلدُّكْتورِ ماجِد ذاتَ صَباحٍ، وهُوَ يُوَقِّعُ الكَشْفَ على صَدْري: «إِنَّكَ لَنْ تَغْضَبَ وتَتْرُكَنا، يا دُكْتور.. أَمّا السَّيِّدَةُ سَوْسَن فَمَعْذورَةٌ، فَمَعَها الآنَ طِفْلٌ صَغيرٌ.»

ابْتَسَمَ وهُوَ يَمْسَحُ على رَأْسي كَما اعْتادَ وقالَ: «لَقَدْ أَصْبَحْتُمْ عائِلَتي.. هَلْ يَتْرُكُ أَحَدٌ عائِلَتَهُ؟»

لَكِنْ لِكُلِّ شَيْءٍ نِهايَةٌ: فَذاتَ لَيْلَةٍ شِبْهِ مُظْلِمَةٍ، سَمِعْتُ نُباحَ الكَلْبِ رَعْدٍ عالِيًا حادًّا مُتَواصِلًا. ورَأَيْتُ حامِد يُمسِكُ بِيَدَيْهِ مِصْباحًا ويَفْتَحُ بابَ سورِ الوَحْدَةِ،

فَفوجِئَ أَمامَهُ بِثلاثَةِ رِجالٍ أَشِدّاء مُلَثَّمين.

وبِغَيْرِ سُؤالٍ ولا سَلامٍ، قالَ لَهُ أَحَدُهُمْ بِغِلْظَةٍ: «أَهْلُ البَلَدِ يَطْلُبونَ مِنْكَ أَنْ تَبْتَعِدَ تَمامًا عَنْ هَذا المَكانِ.. لا يُريدُ أَحَدٌ أَنْ يَراكَ هُنا بَعْدَ الآنِ!»

ثُمَّ اسْتَدارَ الثَّلاثَةُ، وابْتَلَعَهُمُ الظَّلامُ.

كانَ سُكّانَ الجَبَلِ في حاجَةٍ إلى طَبيبٍ يُرَحِّبُ بِهِمْ لَيْلاً في الوَحْدَةِ الصِّحِّيَّةِ، مِثْلُ حاجَةِ الأَهالي إلى طَبيبٍ يَحْرِصُ أَنْ يَظَلَّ بِإنْسانِيَّتِهِ قَريبًا مِنْهُمْ دائِمًا في اللَّيْلِ أَوِ النَّهارِ.

وفَهِمَ حامِد الرِّسالَةَ جَيِّدًا، وأَدْرَكَ أَنَّ أَهْلَ القَرْيَةِ أَبْلَغوا سُكّانَ الجَبَلِ بِرَغْبَتِهِمْ في التَّخَلُّصِ مِنْ حامِد المُفْتَري، فَلَمْ يَضَعْ قَدَمَهُ ثانِيَةً في الوَحْدَةِ الصِّحِّيَّةِ الرّيفِيَّةِ الَّتي يَعْمَلُ بِها الدُّكْتورُ ماجِد.

(٢٣)

وذاتَ صَباحٍ بَعْدَ أَيّامٍ، اصْطَحَبَني الضّابِطُ نَبيل مَعَهُ

إلى القاهِرَةِ.

كُنْتُ بِجوارِهِ في سَيّارَةِ الشُّرْطَةِ، عِنْدَما قالَ لي: «المَحْكَمَةُ الَّتي تَنْظُرُ قَضِيَّةَ الدُّكْتورِ ماجِد، طَلَبَتْ مِنَ المُسْتَشارِ الَّذي يَرْأَسُ الهَيْئَةَ الَّتي تَتَوَلّى إعْدادَ القَضايا لِلْمَحْكَمَةِ، واسْمُها «هَيْئَةُ مُفَوَّضي الدَّوْلَةِ»، أَنْ يُعيدَ دِراسَةَ التَّحْقيقاتِ الَّتي تَمَّتْ مَعَ الدُّكْتورِ ماجِد.. وقَدْ طَلَبَني المُسْتَشارُ لِيَسْتَمِعَ اليَوْمَ إلى شَهادَتي، فَأَرَدْتُ أَنْ أَصْطَحِبَكَ مَعي، لأَنَّكَ الشّاهِدُ الَّذي رَأى وسَمِعَ كُلَّ شَيْءٍ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، مُنْذُ مَجيءِ الدُّكْتورِ إلى الوَحْدَةِ الصِّحِّيَّةِ.»

وقَدْ لاحَظْتُ مَدى دَهْشَةِ المُسْتَشارِ وهُوَ يَسْتَمِعُ إلى حِكايَتي كَما حَكَيْتُها هُنا، كَذَلِكَ وهُوَ يَسْتَمِعُ إلى شَهادَةِ الضّابِطِ نَبيل، بَلْ طَلَبَ أَنْ يَسْتَمِعَ أَيْضًا إلى شَهادَةِ العُمْدَةِ.

(٢٤)

وبَعْدَ أَسابيعَ، أَخْبَرَنا الضّابِطُ نَبيل أَنَّ المَحْكَمَةَ أَلْغَتِ

الجَزاءَ الظّالِمَ، وقالَتْ في حُكْمِها: «لَقَدْ ثَبَتَ لِهَيْئَةِ المَحْكَمَةِ أَنَّ الدُّكْتورَ ماجِد يُقَدِّمُ أَفْضَلَ نَموذَجٍ لِلطَّبيبِ المُلْتَزِمِ المُخْلِصِ في عَمَلِهِ.»

ومَلأَتْني السَّعادَةُ عِنْدَما شاهَدْتُ السَّيِّدَةَ سَوْسَن تَعودُ إلى القَرْيَةِ مَعَ ابْنِ الدُّكْتورِ ماجِد، لِتُواصِلَ مَعَ زَوْجِها رِسالَتَهُ الَّتي نَذَرَ نَفْسَهُ لَها، لِخِدْمَةِ أَهْلِ قَرْيَتي المُجاوِرَةِ لِلْجَبَلِ في مُحافَظَةِ الجيزَةِ، والَّتي نَعْتَزُّ بِأَنَّ اسْمَها «العاطِف».

ينابيع تَتفجَّر من التُّراث العربيّ الأصيل، ومِنَ السِّيرِ الشَّعبيَّةِ الغَنيَّةِ، ومِنَ الحِكاياتِ الشَّعبيةِ العَربيَّةِ؛ لتُصوِّرَ نماذجَ مُضيئةً مِن تُراثِنا، وتعرِضَ قِيمًا مُشرقةً في حياتِنا: تَمزج بين الجِدِّ، والفُكاهةِ في لُغةٍ هادِئةٍ راقيةٍ: لا تعلو فتعوق القارئ وتصدّه ولا تسفُّ فتهبط بذوقِه ومستواه، وإنما تمتِّع وجدانَه وقلبه، وتُثري فِكرَه وعقلَه.

ينابيع

١- سيف الإحسان وقصص أخرى
٢- حبات العقد وقصص أخرى
٣- الباحث عن الحظ وقصص أخرى
٤- مشورة قصير وقصص أخرى
٥- الشعرة الذهبية وقصص أخرى
٦- عنترة بن شداد: مولد البطل
٧- عنترة بن شداد: عبلة والصبي المقاتل
٨- عنترة بن شداد: السيف والكلمات
٩- عنترة بن شداد: يوم عنترة
١٠- رحلة السندباد المجهولة
١١- مزحة صيف وقصص أخرى
١٢- الدهان السحري وقصص أخرى
١٣- كرسي السلطان
١٤- بدر البدور
١٥- حكاية الفتى العربي وقصص أخرى
١٦- قوت القلوب
١٧- الخاتم السحري
١٨- بائع السعادة وقصص أخرى
١٩- رجع بخفي حنين وقصص أخرى
٢٠- العطار والعقد وقصص أخرى
٢١- نسمة الربيع
٢٢- مرآة الخير وقصص أخرى
٢٣- أميرة الحسن والجمال

مكتبة لبنان ناشرون
زقاق البلاط ص. ب: ١١ - ٩٢٣٢
بيروت - لبنان
وكلاء وموزّعون في جميع أنحاء العالم

ISBN 977-16-1094-5
9 789771 610946